صَالِحَاتٌ عرفْتهُنَّ

سِيَرُ صَالِحَاتٍ مُعاصِرَات

تأليف

شيخة بنت محمّد القاسم

مُشْرِفَة تربَوِيَّة

وعُضوة في تأليف المقرّرات الدينية سابقًا

صَالِحَات ... عرفْتهُنَّ

سِيَرُ صَالِحاتٍ مُعاصِرَات

ح شيخة بنت محمد القاسم، ١٤٣٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القاسم، شيخة بنت محمد

صالحات عرفتهن: سير صالحات معاصرات / شيخة بنت محمد القاسم. - الرياض، ١٤٣٨هـ

١٩٢ص؛ ١٤× ٢١سم

ردمك: ١-٤٥٢٩-٠٢-٦٠٣-٩٧٨

١- المرأة - تراجم أ. العنوان

ديوي ٩٢٠,٧٢ ١٤٣٨/٧١٨٥

رقم الإيداع: ١٤٣٨/٧١٨٥

ردمك: ١-٤٥٢٩-٠٢-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧م

التصميم والتنسيق والإخراج الفني والطباعة



المملكة العربية السعودية - الرياض - حي البديعة - طريق المدينة المنورة
هاتف: 88 66 435 11 +966 ناسوخ: 66 88 435 11 +966
جوال: 88 66 44 580 +966 | E-mail: alfalheen@gmail.com
@alfalheen1


بسم الله الرحمن الرحيم

إضاءة

• عـن أسـماء رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت : قـال ﷺ : « أَلا أُخْبِرُكُمْ بِخِيَارِكُمْ ؟ » قالوا : بلى، قال : «الَّذِينَ إِذَا رُءُوا ذُكِرَ اللهُ»[1].

• مَا رأيتُ لِلقلبِ أنفعَ مِنْ ذِكرِ الصَّالِحين.

«محمد بن يونس»[2].

• الحِكايَاتُ جُندٌ مِنْ جُنودِ الله يُثبِّتُ اللهُ بِهَا قُلوبَ أوليائِه.

«الجنيد بن محمد»[3].

---

(١) الأدب المفرد للإمام البخاري (٣/ ٣٢٣)، قال الألباني : حديث حسن.

(٢) صفة الصفوة لابن الجوزي (١/ ٤٥).

(٣) طبقات الأولياء لابن الملقن، ص ١٤٦.



المُقدِّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير المرسلين وقدوة الصالحين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين... وبعد...

فقد صنّف علماء الإسلام سير الصحابيات والصالحات والعابدات، ومن هؤلاء الأئمة ابن الجوزي في كتابه (صفوة الصفوة) والإمام الذهبي في (سير أعلام النبلاء).

ومن اطّلعتْ على سير الصالحات وما فيهنَّ من الصلاح والتُقى؛ ربما تعزو ذلك إلى أنهنَّ عِشن في زمان غير زماننا ومحال أن تصل إلى ما وصلن إليه فـ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ [البقرة: ١٣٤].

- فمن هذا المنطلق سطَّرتُ هذا الكتاب عن سير بعض النساء الصالحات في زمننا هذا - أحسبُهنَّ على تقوى وصلاح - ممن قد تربطني بهنَّ صلة رحم أو صداقة أو معرفة عارضة؛ فمنهنَّ المرأة الكبيرة والشابة الصغيرة، ومنهنَّ من قضت نحبها ومنهنَّ من تنتظر، وما بدلوا تبديلاً.

وقد حرصت ألّا أقيّد إلا ما رأته عيني أو سمعتُه منهنّ أو نُقِل إليَّ من طريق ثقة، وأبرزتُ الجوانب المشرقة في حياتهن؛ ليُعلم أن القدوات الحسنة لسنَ في القرون الأولى فحسب، بل لا يخلو منهنَّ زمن، فالخير باقٍ في أمة محمد ﷺ إلى قيام الساعة، فقد

قـال تعالى عن أصحاب اليميـن: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الواقعة: ٣٩] أي مـن صدر هذه الأمـة ﴿ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ [الواقعة: ٤٠] أي من آخرها..

وقصـدتُ من كتابة هذه السـير المؤثـرة ذات الصبغة العلمية التربويـة، الحافلـة بالفوائـد واللطائـف؛ حياة القلوب، وسـمو النفـوس، وتعطيـر المجالـس بعبق ذكراهـنَّ، وانبعـاث الهمم، وتقويـة العزائم للتأسـي بهـنَّ، فكم مـن قلوب حيـتْ، ونفوس سمتْ بعد قراءة قصة حقيقية أو موقف رُوي لها.

فـتشـبَّـهُـوا إن لـم تـكـونـوا مثلَهمْ
إنَّ الـتـشـبُّـهَ بـالـكـرامِ فـلاحُ

ختامًا: أسـأل الله سبحانه أن يكتب القبول لهذا الكتاب، وأن ينفعنـي به يـوم أن ألقـاه، وأن ينفع به من يقـرؤه، إنّ ربّي مجيب الدعاء، والحمد لله رب العالمين.

كتبته

شيخة بنت محمد القاسم

Smq-1@hotmail.com



١ - نورة الزومان

جدّتي لأبي

«أيضيق صدري وعندي كتاب الله؟»(*).

(*) العبارة مُنتقاة من أبرز ما ذُكر في السيرة.



١ - نورة بنت محمد الزومان

جـدّتي لأبي، أحدّثكم عنهـا؛ عن قُرب، طالبـة العلم الزاهدة العابدة الورعة.

جبل أشمّ في حسن الخلق ورجاحة العقل.

قـلَّ أن تجد في عمرهـا وزمنها مَنْ يجمع بين العلم الشـرعي والعبادة وحسن الخلق والرزانة ورجاحة العقل.

لا أبالغ في هذا، فالقاصي والداني يشهد لها بما ذكرت.

نشأتها :

- تزوجت جدّي الشيخ عبدالرحمن بن قاسم وهي صغيرة في السـن، تربّت على يديه التربية الصالحة، فقد كانت تراه أنموذجًا حيًـا في العلـم والعبادة، وقـدوة صالحة ماثلة أمامهـا؛ تتلقى منه العلـم الشـرعيّ وتقـرأ في كتبه، فتعلَّمـت وعَمِلـت وعلّمت مَنْ حولها من أبناء وأحفاد وأقارب ومعارف.

فهنيئًـا لها هذا الفضـل... وهذا يُذكّرنا بما قاله ابن القيم : من عَلِمَ وعَمِلَ وعلّم فذاك يُدعى عظيمًا في ملكوت السموات[1].

---

(١) زاد المعاد (٣/ ١٠).

سكنها :

- كانت تسكن مع جدّي وأبنائها في منزل كبير في مزرعة (المغيدر)[1].. مزرعة تتميّز بكثرة أشجار النخيل، والرمان والخوخ، وعروش العنب.. هناك؛ حيث الهواء النقِّي، والنسيم العليل ، ففي كلّ صباح شمس تشرق، وطيور تغرّد ، ومياه تنساب معلنةً أنَّ هذا يومٌ جديد..

يشعر الداخل فيها بسرور وانشراح صدر، مع ما يصاحبه من صلاح حال أهلها واستقامتهم.

حسن رعايتها لبيتها :

- كان جدي كثير السفر والتنقلات فحملتْ عبء المسؤولية على عاتقها ؛ بالإشراف على المزرعة؛ من إعداد طعام عُمَّال المزرعة وإكرام الضيوف وتربية الأبناء وحلب البقر وحصد الزرع و.....

أدرك ذلك عُمَّال المزرعة مما جعل أحدهم يقول - محسنًا الظنَّ بالله- إن كان عمل هذه المرأة لله فلتبشر بالجنة.

- ربت أبناءها تربية صالحة ، قوامها؛ أمرهم بالمحافظة على الصلاة امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾

---

(١) قريبة من (الدرعية) بجوار مدينة الرياض.

[طه: ١٣٢]. وكانـت تعينهم علـى ذلك؛ ففي ليالي الشـتاء الباردة؛ تُسـخّن المـاء على الحطـب قبيل أذان الفجـر، فـإذا أذّن الفجر أيقظتهم للوضوء والصلاة في المسجد.

- كانـت جدّتي شـديدة المحافظة على النعمـة؛ ففي صحتها وشـبابها كانت تُنقـي التمر المتسـاقط من أعالي النخـل؛ فالتمر الجيد طعام للآدميين، والرديء طعام للبهائم.

- كان وقـت تناول وجبات الطعام في المزرعة له طابع جميل ونظـام دقيق لا يتغير؛ فوجبة الإفطار في السـاعة السـابعة تقريبًا، وطعام الغداء بعد صلاة الظهر مباشـرة، وطعام العشاء بعد صلاة المغرب مباشـرة، ولربما أحدهم يصلي سنة المغرب وإذا طعام العشاء قد حضر!

- وقد وهبها الله قوة ونشاطًا في عملها، من ذلك أنها كانت في أحد الأيام تدقّ الحبّ في الآلة المعروفة آنذاك (الرَّحى)، وعندما انتهت سـمعت ضحكة أحد الصغـار كان مختبئًا في زاوية الغرفة يعدّ صوت دقّات الحبّ التي بلغت تسعًا وتسعين دقة.. فسبحان من أعانها وقوّاها.

البركة في الوقت والرزق:

• البركة: هي قدر زائد على العطاء، وهي دوام الخير وكثرته. ولا خيـر أكثـر وأدوم مـن خير الله سـبحانه، والتقوى سـبب

للبركـة كمـا قـال تعالـى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

- بارك الله في وقـت جدّتي وعمرها: وإلا فأنّى لامرأة واحدة أن تقوم بأدوار عديدة فهي الأب في غيابه والأم والمربية والمعلمة والطباخة والخيّاطة و....؟!

- وأمـا البركـة في الـرزق: فـإنَّ جـدّي عندما هـمَّ في إحدى المرات بالسـفر إلى مكة أعطاها مبلغًا من المال، قائلاً: اصرفيه عند الحاجة، وعاد بعد مضي عام وهي لمْ تحتجْ إليه!.

- بارك الله لها فيما تنتجه المزرعة وما أحسـنت التصرف من مواردها.

شركاء في الأجر:

- كان جـدّي كثير السـفر لانشـغاله بجمع (الدرر السـنية في الأجوبـة النجديّـة) - سـتة عشـر مجلـدًا - ثم (مجمـوع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية) سـبعة وثلاثين مجلدًا؛ استغرق جمعها وطباعتهـا أربعيـن سـنة! جمعهـا مـن خزائـن المخطوطات في مكتبات لبنان والعراق ومصر وسوريا وألمانيا وفرنسا...

ولربما غاب عن بيته سـنة أو سنتين! وربما سافر وهي حامل بجنين وعاد من سفره والطفل يحبو أو يمشي!

- ولك أن تتخيـل حال هذه المرأة الصالحة التي تقوم بأعباء كثيرة ومسؤوليات جسيمة وعمل دؤوب؛ تصارع الحياة وتقارع خشونة العيش وحدها، وخاصة وهي في مقتبل عمرها، وأولادها صغـار، والليل موحـش، مما حـدا بأخيها أن ينـام عندها بعض الأحيان ليؤنسها.

إنهـا والحالة هذه لابد أن تبثّ شـكواها ومعاناتها لجدّي بين حين وآخر.

ولابــدّ مِــنْ شكـوى إلــى ذي مــروءةٍ
يُــواسِـيــكَ أو يُـسْـلِـيـكَ أو يـتـوجَّـعُ

فقال لها يومًا: أنت شـريكة لي في الأجر (يعني في أجر تأليف الكتب)... أشركها همّه، وعايشها دعوته، فما تذمّرت بعدها قطّ!

هنيئًـا لها!، أعانتـه على أمر آخرتِهِ، وفرّغتْهُ لخدمة الإسـلام، وتحمّلتْ عنه أعباء المسؤولية؛ من رعاية الأبناء وتنشئتهم التنشئة الصالحـة، والتدبير الحســن في بيتها، والإشـراف على المزرعة قامت بذلك على أحسـن وجه، نسـأل الله أن تكون شـريكة له في أجـر تأليف كتبه والتي اشـتملت على عدة فنون (التوحيد والفقه وأصول الفقه والتاريخ..) نفع الله بها الإسلام والمسلمين، وكأني بجـدّي - رَحِمَهُ اللهُ - قد عمل بوصية نبينـا ﷺ: «لِيَتَّخِذْ أَحَدُكُمْ قَلْبًا شَاكِرًا، وَلِسَـانًا ذَاكِرًا، وَزَوْجَـةً مُؤْمِنَةً تُعِينُ أَحَدَكُمْ عَلَـى أَمْـرِ

الْآخِـرَةِ»[(١)]، وقولـه ﷺ: «الدُّنْيَـا مَتَاعٌ وَخَيْـرُ مَتَاعِ الدُّنْيَـا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ»[(٢)].

• وهذه رسـالة لزوجات العلماء والدعـاة أن يحذين حذوها في الصـبر على غيـاب أزواجهـنّ ورعايـة أبنائهنّ، فهـنَّ - بإذن الله - شـريكات في الأجر والثواب مـع أزواجهنّ في هداية الناس وتعليمهـم الخيـر، والله لا يضيع أجر من أحسـن عمـلاً، فهناك مصالِحُ لا تتـمّ إلاّ بالتعاون بين الأفراد ولهم الجزاء الموفور من الله سبحانه؛ فقد قال ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ بِالسَّهْمِ الْوَاحِدِ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ الْجَنَّةَ صَانِعَهُ يَحْتَسِبُ فِي صَنْعَتِهِ الْخَيْرَ وَالرَّامِيَ بِهِ وَمُنْبِلَهُ»[(٣)].

صلاحها وتقواها :

- لمسـتُ من حياة جدّتي الإخلاص في أقوالها وأعمالها، إنها لا ترضى أن يُثني على عبادتها أحد!

- لمستُ من حياة جدّتي الحرص على اغتنام الأوقات، وهذا مصداق ما قاله بعض السلف : كل يوم يعيشه المؤمن غنيمة؛ فقد

---

(١) رواه الترمـذي برقـم (٣٠٩٢)، وابـن ماجـه برقـم (١٨٥٦) ، صحيح الجامع للألباني برقم (٥٢٣١) .

(٢) رواه مسلم برقم (١٤٦٧).

(٣) رواه أبو داود برقم (٢٥١٣) قال محققوه : حديث حسن، منبله : مُناولة للرامي ليرمـي به احتسـابًا منه، يقوم بجنبه أو خلفـه فيناوله إياه أو يجمع له السـهام إذا رماها ويردها إليه.

زرتها ذات يوم (يوم الاثنين من شهر شوال) وهي صائمة فظننتُ أنه من صيام الست، فقالت: انتهيت من صيام الست، ولكن لعل هذا اليوم ينفعني إذا لقيت ربي.

- لمستُ من حياة جدّتي حب الخير للآخرين، ولا يزال يتردد في أذني تكرار وصيتها لبعض أقاربها أن يوصل لأحد المعارف أن يحجوا عن ابنة من عائلتهم توفيت قديمًا وهي شابة ولم تحج ولم يحجّ عنها.

- ومن فقهها: قالت ذات مرة لعمّة والدي: اللهم اجعلني أراكِ بعد المرور على الصراط، فأمّنت عمّتي على دعوتها... إنها تعلم أنَّ مَنْ مرَّ على الصراط فقد سَلِمَ من النار كما قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم: ٧١-٧٢].

- وأصيب أحد أحفادها بجرح فسال منه دمٌ غزير فأمرت بإحراق سعفة من النخلة ووضعها على الجرح فتوقّف الدم.. ولعل هذا (الطب) اكتسبته من الحديث الصحيح: «**أنه لما أُدمي وجه النبي ﷺ يوم أُحد فكانت فاطمة رضي الله عنها تغسل وجهه، وعلي رضي الله عنه يسكب الماء بالمجن**(*)**، فَلَمَّا رَأَتْ فَاطِمَةُ الدَّمَ يَزِيدُ عَلَى**

(*) المجن: الترس.

الْمَاءِ كَثْرَةً ، عَمَدَتْ إِلَى حَصِيرٍ فَأَحْرَقَتْهَا وَأَلْصَقَتْهَا عَلَى جُرْحِه فَرَقَأَ الدَّمُ »[1].

حرصها على المحافظة على الوضوء والصلاة :

• قال ﷺ : «لَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ»[2].

دلَّ الحديث على استحباب دوام الطهارة، وأن المحافظة على الوضوء من علامات الإيمان، وأنه يستحب عقب الحدث وإن لم يكن وقت صلاة ولم يُرد الصلاة...

- كانت جدّتي حريصة أن تكون على طهارة دائمة، تنتظر الصلاة انتظار المشتاق المحب، فإذا ما أذّن المؤذّن قامت إلى الصلاة، فالصلاة عندها لها منزلة كبرى ومكانة عظمى؛ فقد كانت قرة عينها ونعيم قلبها وسعادة روحها.

سجدات الليل :

• قال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴾ [عبس : ٣٨]، قال ابن عباس: من قيام الليل[3].

• قيام الليل من أفضل الطاعات فقد قال ﷺ: « أَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ الصَّلَاةُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ»[4] قال بعض

---

(١) رواه البخاري، برقم (٢٩٠٣).
(٢) رواه ابن ماجه برقم (٢٧٩).
(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٩/ ٢٢٦).
(٤) رواه مسلم برقم (١١٦٣).

السلف: إني لأفرح بالليل حين يقبل، لما يلتذ به عيشي، وتقرُّ به عيني من مناجاة من أحب، وأغتم للفجر إذا طلع، لما أشتغل به بالنهار عن ذلك»[1].

• في قيام الليل لذّة وحلاوة وسعادة وفرح وانشراح صدر لا يتذوّقه إلا من صفّ قدميه لله في ظلمة الليل البهيم؛ يناجي ربّه؛ يرجو رحمته ويخاف عذابه.

- جدّتي قوّامة ليل؛ بِتُّ عندها في إحدى الليالي وكان أذان الفجر الساعة الرابعة، فرأيتها استيقظتْ قبل الساعة الثانية ليلاً، لم تغرّها لذة نوم ولا دفء فراش، فصلّت ما شاء الله لها أن تصلي ثم استراحت قليلاً حتى أذّن الفجر ثم قامت لصلاة الفجر.

منع القرآنُ بوعده ووعيدِهِ
مُقَلَ القُلوبِ بليلها لا تهجعُ
فَهِمُوا عن الملكِ العظيم كلامه
فهمًا تَذِلُّ له الرقاب وتخضعُ

خشيتها لله:

• الخشية: هي الخوف المبني على علم بعظمة الله، وإذا سكنت الخشية القلوب أقبلت الجوارح على الطاعات وأحجمت عن الشهوات.

---

(١) طريق الهجرتين لابن القيم، ص٣٢١.

- أقمتُ عندها وأنا صغيرة تسعة أيام - لا أنسى حلاوة تلك الأيام ما حييت - رأيتُ منها شدة خشيتها لله والتماس رضاه - فيما نحسبها والله حسيبها -.

- كان رؤية وجه جدّتي المستنير وسمْتِها وهدْيِها يُذكِّر بالله واليوم الآخر، وهذا أمرٌ لا غرابة فيه، فقد ورد أنّ التابعي العابد أيوب السختياني إذا رآه أهل السوق سبّحوا وهلّلوا وكبّروا.

- كانت خاشعة لله خائفة؛ تحدثنا عن النفخ في الصور وأهوال يوم القيامة.

تحدثنا عن الساعة، وكأنها ستقوم قريبًا بين عشية وضحاها.

تحدثنا عن النار، وكأن النار قد خُلقت لها!

- تُحبُّ أن يُقرأ عليها أحاديث النبي ﷺ وكتب السير، وتبكي لحديث أم معبد الخزاعية في وصف النبي ﷺ.

- كُنَّا إذا قرأنا عليها قصيدة زين العابدين المشهورة التي مطلعها:

ليس الغريبُ غريبَ الشّامِ واليَمنِ
إنَّ الغريبَ غريبُ اللَّحدِ والكفنِ

غطّت وجهها وأجهشتْ بالبكاء!.

- ومع هذا كلِّه؛كانت ترى من نفسها التقصير في حقِّ الله سبحانه على ما هي عليه من الطاعات... إنّه التواضع ومقت

النفس في ذات الله، وهذا مقام لا يدركه إلا أصحاب القلوب الحيّة.

صبرها على المصائب:

• الدنيا دار الأكدار والأحزان، لابدّ فيها من الابتلاء وتغيّر الحال، والمؤمن يصبر على ما يجد فيها من الابتلاءات لما وعد الله به الصابرين من الجزاء الحسن، كما قال المصطفى ﷺ: «**إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مَنْزِلَةٌ لَمْ يَبْلُغْهَا بِعَمَلِهِ، ابْتَلاهُ اللهُ فِي جَسَدِهِ أَوْ فِي مَالِهِ أَوْ فِي وَلَدِهِ، ثُمَّ صَبَّرَهُ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى يُبَلِّغَهُ مَنْزِلَتَهُ الَّتِي سَبقَتْ لَهُ مِنَ اللهِ تَعَالى**»[1].

- اُبتُليتْ جدّتي بوفاة ابنتها وهي في ريعان شبابها - بداء البطن - نرجو لها الشهادة، فالمبطون شهيد كما ورد عن النبي ﷺ - ثم بعدها بسنوات فقدت ابنًا لها في حادث دهس توجَّعتْ وحزنتْ عليه حزنًا شديدًا، فدعت ربها بعد ثلاث ليالٍ من وفاته أن ينزع شغف حبِّه من قلبها، فاستجاب الله لها وسكنتْ نفسها، وبعد سنة ونصف توفي جدّي - زوجها - وبعد عشر سنوات توفي ابنها الأكبر (عبدالله) فصبرتْ واحتسبتْ مستحضرةً قول الله تعالى:

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

---

(١) رواه أبو داود برقم (٣٠٩٠).

فكلُّ مُصيبةٍ عظُمتْ وَجلّتْ
تَخِفُّ إذا رجوتَ لها ثوابًا

تُحِبُّ في الله وتُبْغِضُ في الله :

• من أصول الدين : الولاء والبراء : الحبّ في الله والبغض في الله، قال ﷺ : «**مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ**»[1].

تحبّ في الله : الحبُّ في الله من أعمال القلوب العظيمة، والمصارحة بمحبّة الإخوان من المستحبات، ومن كرائم الأخلاق، ومحاسن الشيّم، فقد ورد عن أنس رضي الله عنه أنّ رجلاً كان عند النبي ﷺ فمرّ به رجل فقال : يا رسول الله، إنّي لأحبّ هذا، فقال النبي ﷺ : **أعلمته؟** قال : لا، قال : **أعْلِمهُ،** فلحقه فقال : إنّي أحبّك في الله، فقال : أحبّك الذي أحببتني له.[2].

- رأيت جدّتي تُطبّق هذه السنّة؛ قالت ذات مرة لإحدى حفيداتها: إني أحبّك في الله، ولما أخطأت الحفيدة في الرد، صوّبتها إلى الرد الصحيح : «أحبّك الذي أحببتني له».

- كانت تحبّ العلماء والصالحين : إذا مرّ ذكر العلماء والمشايخ المتوفين من أصدقاء جدي دعت لهم وترحمت عليهم.

---

(١) رواه أبو داود برقم (٤٦٨١).
(٢) رواه أبو داود برقم (٥١٢٥).

- وقد أوصت أحد الأقارب أن يوصل سلامها إلى الشيخ عبدالعزيز بن باز ثم أردفت قائلة – تواضعاً- : أنا أقلُّ قدرًا من أن يصله سلامي!

- حدّثْتُها ذات يوم عن زميلة لي صالحة تقيّة وذكرتُ طرفًا من سيرتها العطرة، فما كان منها إلا أن طلبت مني أن أُقرئها السلام.

- كانت تفرح بما يحصل للمسلمين من نعمة وخير، وتُسرُّ بذلك، تُذكِّرك بما قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: إني لأسمع بالغيث قد أصاب البلد من بلاد المسلمين فأفرح به وما لي به من سائمة[1].

وكانت تبغض في الله :

- تبغض الكفرة وتكره السفر إلى بلادهم.

- وكلّما تذكّرتْ حفيدتها التي سافرتْ إلى بريطانيا برفقة زوجها الذي كان يدرس هناك، ردّدتْ دعوتها المألوفة : «اللهم أخرجها من الظلمات إلى النور».

- وفي عصر يوم من أيام شهر رمضان، قَدِمتْ عليها إحدى المعارف وبرفقتها خادمتها النصرانية، فغضبت لله، وذكّرتها بتحريم استقدام الكفار، وتكدَّر خاطرها، ولم تشته طعام الإفطار ذلك اليوم، والله المستعان!.

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ٣٢٢).

حال مجلسها :

• إنَّ من عظّم وقار الله في قلبه وقّره الله في قلوب خلقه، وأقبل الله بقلوب العباد إليه، قال زيد بن أسلم : كان يُقال : من اتقى الله أحبَّه الناس وإن كرهوا [1].

- وهـذا مـا رأينـاه منها رأي العيـن، فقد وضـع الله لها محبة وهيبة ومكانة عظيمة عند القريب والبعيد، أجمعتْ القلوب على محبَّتها وتقديرها واحترامها.

ولعلها - ولا نزكّي على الله أحدًا - يصدق عليها قول الشاعر :

فـإذا أحـبّ اللهُ بـاطـنَ عَـبْـدِهِ
ظَـهَـرتْ عـلـيـهِ مـواهـبُ الـفـتّـاحِ
وإذا صَـفَـتْ لله نـيَّـة مُـصـلـحٍ
مـالَ الـعـبـادُ إلـيـه بـالأرواحِ

- مجالسـها لا تُملّ؛ تنتقي أطايب الـكلام كما يُنتقى أطايب الثمـر : فحديثهـا لا يخلـو مـن الاستشـهاد بالآيـات القرآنية أو الأحاديث النبوية أو حكم شـرعي أو موعظة أو قصص السلف، ولذا فلا يقوم من حضر مجالسها إلا غانمًا - ولله الحمد -.

• قـال أبو الدرداء : ما تصدق عبـد بصدقة أفضل من موعظة يعظ بها إخوانًا له مؤمنين فيتفرقون وقد نفعهم الله بها [2].

---

(١) كتاب الفوائد لابن القيم ص٨٣.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (٤/ ٤٢).

- وللصغار نصيب من علمها : فقد علَّمت بعض أبنائها وحفيداتها القراءة وبعض سور القرآن الكريم، وكانت تقصُّ علينا ونحن صغار قصص الأنبياء - عليهم السلام - وما فيها من دروس وعبر، مستشهدة بالآيات القرآنية.

• وهذه رسالة لطلاب وطالبات العلم أن يغتنموا حضور الكبار والصغار من الأقارب والمعارف مجالسهم، ويفيضوا عليهم بما تفضّل الله عليهم من علم، فربّما يقوم أحدهم تائبًا، وآخر عازمًا على طلب العلم، و...

حالها مع القرآن :

• قال سبحانه مثنيًا على صنفٍ من عباده الصالحين : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾ [فاطر : ٢٩].

• قال خبّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : تقرّب إلى الله ما استطعت ، فإنك لن تتقرّب إليه بشيء أحبّ إليه من كلامه[١].

• وقال ابن القيم : القلب الطاهر لكمال حياته ونوره وتخلّصه من الأدران والخبائث لا يشبع من القرآن[٢].

- كان القرآن الكريم أنيس جدّتي وجليسَها، فكانت في شبابها

(١) مختصر الليل للمقريزي، ص ٧٥.

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٤٥).

وهـي تعمل في بيتهـا أو في المزرعة تقرأ ما حفظتـه، وربما آثرت أحيانًـا عدم مخالطة أهل بيتها لتقـرأ في كتاب الله، فغرس الخلوة يثمر الأنس كما قال ابن القيم[1].

أما العشـرون سـنة الأخيـرة من عمرهـا بعدما تـزوج الأبناء ومـات جدي - رَحِمَهُ اللَّهُ - فكانت تقضي جلّ وقتها في تلاوة القرآن الكريم مـن الصباح الباكر إلى أذان المغـرب؛ لا يقطع عليها إلا أداء صـلاة، أو تناول وجبـة طعام، أو قيلولة بعـد الظهر، أو لقاء ضيف قَدِمَ للسلام عليها، أو ما شابه ذلك من الضروريات.

تُذكِّـرك بمـا قاله نافع مولى ابن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - لما سُـئل : ما يصنع ابـن عمر في منزله؟ قال : لا تطيقونه؛ الوضوء لكل صلاة، والمصحف فيما بينهما[2].

- كان غلاف مصحف جدّتي يتمزق من بين حين وآخر لكثرة قراءتها فيه فيُعاد تجليده!

وترفض تغييره : «هذا رفيقي لا أغيِّرُهُ».

- قلت لها ذات يوم : لو استمعت إلى شريط تسجيل للقرآن، فقالت : لو كنتِ جائعة تنظرين إلى من يأكل الطعام أم تشـاركينه في الأكل؟ قلت :أشاركه في الأكل.

---

(١) الفوائد ص٧٨.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (٣/ ٢١٥).

قالت: كذلك قراءة القرآن أفضل من الاستماع إليه، وهذا من فقهها(*).

- قالت لها إحدى القريبات: ألا يضيق صدرك؟ فعجبت من سؤالها وأجابت: أيضيق صدري وعندي كتاب الله! وصدقت: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

- زرناها عصر ذات يوم، وتجاذبنا معها أحاديث مباحة، فكانت تشاركنا تارة وتعقد أناملها بالذكر تارة أخرى، ولما أذّن المغرب باحت لنا بندمها على ما فات من الوقت في غير ذكر... إنها تدرك قيمة الوقت وقدر نفاسته!

قوة استحضارها للآيات القرآنية:

وقد اكتسبت ذلك من كثرة تلاوة القرآن الكريم، من ذلك:

- لما رأت سجادة كبيرة في دارها تُطوى، تلت هذه الآية: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾[الأنبياء: ١٠٤].

- حدثناها في إحدى المرات عن موضوع ما، فلم تسمع ما قلنا، ثم هزت رأسها وقالت: إيه! ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

- وذكرتْ لنا يومًا أن من فاته قيام الليل يقضيه في النهار، ثم تلت هذه الآية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

(*) لكنها لما ضعفت في آخر حياتها أصبحت تكثر من سماعه.

- ولما بُشّرت بولادة حفيد لها دعت أن ينبته الله نباتًا حسنًا.. كما قال تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ [آل عمران: ٣٧].

- وذكرتْ لها امرأةٌ صالحة صبورة واقعةً حصلت لها، فلم ترَ الحقائق على ما هي عليه لطفًا من الله بها، فقالت لها جدّتي: أنت كأهل بدر الذين قال الله فيهم ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ ﴾ [الأنفال: ٤٤].

حُسن خلقها:

• حُسن الخلق: منقبة حميدة ومنزلة رفيعة، قال ﷺ: «**أَرْبَعٌ إِذَا كُنَّ فِيكَ فَلاَ عَلَيْكَ مَا فَاتَكَ مِنَ الدُّنْيَا: حِفْظُ أَمَانَةٍ، وَصِدْقُ حَدِيثٍ، وَحُسْنُ خَلِيقَةٍ، وَعِفَّةٌ فِي طُعمة**»(١).

- منَّ الله سبحانه على جدّتي بهذه الصفات الأربع فقد كانت حسنة الخلق، عاقلة، رزينة، صادقة في حديثها، عزيزة النفس، غنية القلب، طعمتها حلال، لا تنظر إلى ما في أيدي الناس، بارّة بوالديها في حياتهما وبعد مماتهما، تُحبُّ صلة الرحم، وتفرح بالاجتماعات العائلية، تسأل عن أحوال الصغير والكبير، تشاطر الناس أفراحهم وأتراحهم، تتألم لألم المريض، وتفرح لفرح المسرور، وتحزن لحزن المحزون.

---

(١) رواه أحمد برقم (٦٦٥٢)، صحيح الجامع برقم (٨٨٦).

- لا يسمع منها كلمة نابية أو غليظة أو مشتملة على سوء أدب، كان خُلقُ الحلم رفيقها إلى أن ودعت الحياة.

- أُحضر لجدّتي خادمة لما كبُرت وضعُفت، أحبتْ جدّتي حبًّا جمًّا لما رأت عليها من أمارات الصلاح وحلاوة اللسان بالذكر والتسبيح والدعاء للمسلمين، وقد أرسل أبناء الخادمة يطلبون منها حضور زواج ابنتها فأبتْ وقالت بالحرف الواحد: سألزم هذه المرأة حتى الممات، زوّجوا أختكم!

وصدق الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم: ٩٦]، قال بعض السلف: ما أقبل عبد بقلبه إلى الله عزّ وجل إلا أقبل الله بقلوب أهل الإيمان إليه حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم[(١)].

زهدها وورعها:

• الزهد: ترك ما لا ينفع في الآخرة.

والورع: ترك ما تخاف ضرره في الآخرة[(٢)].

- كانت جدّتي وَرِعة تقيّة زاهدة، لم تغرها الحياة الدنيا، يكفيها القليل من الطعام واللباس، تُذكِّرك بزهد الإمام أحمد في قوله: «إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وإنها هي

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ١٤٠).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٨).

أيام قلائل»[1].

- قدمتُ لزيارتها ذات مرة، فأخبرتني أنّ أحد محارمها خرج من زيارتها قبل قليل، وأخبرها أنه تمَّ زواج ابنه البارحة، وأنّ الزواج كان مختصرًا، ولم يزد على ذلك، ثم أردفت قائلة: لم أسأله عن تفاصيل الزواج، ولو سألته لأخبرني، ولكن ذلك لا ينفعني في آخرتي!

وعدّت أنّ هذا من فضول الكلام.

- كانت تتورَّع عن دقائق الأمور: لما توفي زوج ابنتها - عمتي - أقامتْ عند ابنتها في الرياض أيامًا من أيام العدّة، ولما رأت كثرة الضيوف القادمين للسلام عليها؛ رجعت إلى بيتها في المزرعة بسبب أفصحت عنه: أموال اليتامى تصرف في الشاي والقهوة!.

يا له من قلب فَطِن يعي دقائق الورع!

• لقد شابهت ما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب (الورع) عن بعض أهل العلم: «أنَّ امرأة من الصالحات أتاها نعي زوجها وهي تعجن، فرفعت يديها من العجين، وقالت: هذا طعام قد صار لنا فيه شريك، وأخرى أتاها نعي زوجها والسراج يتّقد، فأطفأت السراج، وقالت: هذا زيت قد صار لنا فيه شريك»[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء (١١/ ٢١٥).

(٢) ص ٩٩.

كـــرِّرْ عـلـيَّ حـديـثَـهـم يـا حَــادِي
فـحـديـثُـهُـم يـجـلُـو الـفـؤادَ الـصـادِي

حرصها على تطبيق السنّة :

• قـال ابـن تيمية : «أسـعد الخلق وأعظمهـم نعيمًا وأعلاهم درجة؛ أعظمهم اتباعًا وموافقة له ﷺ علمًا وعملاً»[1].

- كانـت جـدّتي حريصـة على إقامـة السـنة اقتـداءً بنبينا ﷺ كحضـور صـلاة العيدين، وسـنن الصـلاة وقيام الليـل والصيام والأذكار والأوراد، والمحافظـة علـى أدب الحديـث والأخـذ باليمين ولعق الأصابع ولعق الصحفة وغير ذلك.

لباسها :

- كان لباس جدّتي واسعًا فضفاضًا ، تلفّ الخِمَار على رأسها فيبـدو وجهها الوضّاء، حريصة على السـتر والحشـمة فلا يظهر منها ذراع ولا ساق.

- وقد كنّا يومًا في مجلسـها نتسـامر معهـا، فتنبهت إلى ثقب صغير في ثوبها - لا يكاد يُرى - فسألتنا : هل رأيتم ما تحته؟!

الله المسـتعان! مـاذا لـو رأت من تتعمـد إظهـار مفاتنها، فما عسى أن تقول؟!

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٦).

حجابها :

• قـال عبـدالله بـن مسـعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لامرأته لمـا قالت له : «اكسـني جلبابًا»، قال : «كفاك الجلباب الذي جلببك الله عز وجل به : بيتك»[1].

– لم تكن جدّتي خرّاجة ولاجة، بل عاملة بأمر الله: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وممّا أعانها على ذلك أنّ أقاربها وأرحامها كانوا لا ينقطعون عن زيارتها، فلم تكن ترى حاجة للخروج.

لهـا (عباءة) ثقيلة جدًا – وكأنها مـن قماش الخيمة – تحتفظ بهـا في صنـدوق حديد، تلبسـها عنـد خروجهـا لأداء صلاة عيد الفطـر ثـم تخبئها إلى صلاة عيـد الأضحى.. فهـي لا تخرج إلا لصلاة العيدين![*].

– وإن مرضـت تناولـت دواءً شـعبيًا أو دواء مـن الصيدليـة، فهي لا تحب الذهاب إلى المستشفيات، وقد أُحضر لها الطبيب مرتين أو ثلاثًا لمّا مرضت وهي كارهة قدومه إليها.

حياؤها :

– حباهـا الله حياءً لم تسـجله كُتب السـير – فيمـا أعلم– من ذلـك؛ أنهـا كانت لا ترضى بيـع خواتمها خشـية أن يعرف البائع حجم أصابعها!! كما كانت ترفض أن تُخاط ثيابها عند الخياط.

---

(١) إصلاح المال لابن أبي الدنيا برقم (١٩١).

(*) استثناءً عندما توفي زوج ابنتها كما أسلفت.

أمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر :

● للأمـر بالمعـروف منزلـة عظيمـة، فبتحقيقـه يكثـر الخيـر ويضمحل الشر، وإذا طُوِي بساطه فَشَتْ المنكرات.

- كانت جدّتي شجاعة في الصدع بكلمة الحق، تأمر بالمعروف وتنهـى عن المنكر، ولا تحابي أحـدًا، ولا يغضب منها أحد،فقد كتب الله لها القبول.

من ذلك :

- كانت تحذرنا - الحفيدات - من التشبه بالكافرات في قص الشـعر وتبين لنا حرمة التشبه، وتوصينا بإطالة الشعر وأنه جمال للمرأة، وتسـتدل ببيت من الشـعر لامرئ القيـس صعب اللفظ، جزيل المعنى، وهو من المعلقات السبع:

وَفَــرْعٍ يَـزِيـنُ الـمـتَـنَ أَسْــوَدَ فَـاحِـمٍ
أثـيـثٍ كَـقِـنـوِ الـنَّـخْـلَـةِ الـمُـتَـعـثـكِـلِ[1].

- وعتبـت مـرة علينـا في عـدم لبـس أسـاور الذهـب كعادة الصغيرات والكبيرات من النسـاء، فقلنا : لا نحبّ لبس الذهب، فقالـت : - وهـي تفقه الواقـع - ليس هذا مقصدكـنّ ، بل رأيتنّ أولئك - تقصد الكافرات - لا يلبسن الذهب فتركتنّ لبسه!

---

(١) الفرع : الشعر، الفاحم : الشديد السواد، الأثيث : الكثير، النخلة المتعثكلة: التي خرجت عثاكيلها أي قنوانها.

- وتأمرنا بوضع الحناء حتى لا نتشبه بالرجال، وتستدلّ بحديث الرسول ﷺ: (أن امرأة أوْمت من وراء ستر بيدها كتابٌ إلى النبي ﷺ فقبض النبي ﷺ يده فقال: «**ما أدري أيدُ رجُل أمْ يدُ امرأة**»، **قالت: بل امرأة**، **قال**: «**لو كنتِ امرأة لغيرتِ أظفارك**»[(١)] يعني بالحناء.

- وكانت تصحح لنا عند وداعها بقولنا (مع السلامة) باستبدالها بـ(في أمان الله).

- زرناها في إحدى المرات ومعنا خادمة من شرق آسيا، قالت: اسأليها عن التوحيد في بلادها، قلت: إنها مسلمة، قالت: «حتى ولو» (وكأنها تشير إلى عبادة القبور التي افتتن بها كثير من الجهال).

- أصيبت إحدى معارفها بالوسواس في الوضوء، ولمّا بلغها الخبر، وكيف أنها تهدر الماء الكثير عند الوضوء، أوصت قريبتها «أن تُقرئها السلام، وأن تُذكِّرها بأن كل قطرة من الماء تقع على الأرض ستُحاسب عليها».

فما إن وصلت النصيحة لهذه المرأة إلا وجاهدت نفسها وانقطعت عنها الوساوس، وما أسرفت بعدها في الوضوء.

---

(١) رواه أبو داود برقم (٢٦٢٥٨) قال محققوه: إسناده ضعيف، وحسنّه الألباني في صحيح أبي داود (٢/ ٧٨٥٩)، قال في عون المعبود: وفي الحديث شدة استحباب الخضاب بالحناء للنساء.

ومرّت السنوات وما نسيت هذه المرأة الدعاء لجدّتي على هذه النصيحة المؤثرة - وأحسبها - أنها خرجت من قلبٍ صادقٍ مخلصٍ فوصلت إلى قلب المرأة.

• قال بعض السلف: رُبَّ كلمة لا يُلقي لها العبد بالاً يركض بها إلى أعلى عليّين في جوار رب العالمين.

أثر نور الإيمان على المؤمن:

• قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنّ للحسنة نورًا في الوجه، وضياءًا في القلب، وقوةً في البدن، وسعةً في الرزق، ومحبةً في قلوب الخلق، وإنّ للسيئة ظلمةً في الوجه، وسوادًا في القلب، وضعفًا في البدن، وضيقًا في الرزق، وبغضةً في قلوب الخلق[1].

• وقال ابن تيمية: ما في القلب من النور والظلمة والخير والشر يسري كثيرًا إلى الوجه والعين، وهي أعظم الأشياء ارتباطًا بالقلب[2].

• وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥].

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي هادي أهل السموات والأرض.

---

(١) الوابل الصيب لابن القيّم، ص٥٦.

(٢) الاستقامة، ص٣٥٥.

﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾: أي مثل نوره في قلب المسلم، قال ابن القيم : وهذا هو النور الذي أودعه الله في قلب عبده المؤمن من معرفته ومحبته والإيمان به وذكره.... وأصل - هذا النور - في قلوبهم ثم تقوى مادته فتتزايد حتى تظهر على وجوههم وجوارحهم، وأبدانهم، بل وثيابهم، ودورهم، يبصره من هو من جنسهم، وإن كان سائر الخلق له منكر...)[١].

وإليك ما رأيناه من جدّتي : -

- (على وجوههم) : كان وجهها وضَّاءً، يشعّ منه نور الإيمان، يشهد بذلك كل من رآها، وازداد هذا النور عند قرب أجلها!.

- (وعلى جوارحهم) : قد سخرتْ جوارحها التي تنطق بها وتسمع بها وتنظر بها وتمشي بها إلى ما هو خير وصلاح لها... وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

دروس وعبر من سيرتها :

• قال ابن القيم يصف القلب الصحيح السليم : القلب الصحيح هو الذي همّه كلّه في الله، وحبّه كلّه له، وقصده له، وبدنه له، وأعماله له، ونومه له، ويقظته له، وحديثه والحديث عنه أشهى من كل حديث، وأفكاره تحوم حول محابّه ومراضيه[٢].

---

(١) الوابل الصيب، ص١٠٤.

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٥٩).

- كأن ابـن القيـم - رَحِمَهُ اللَّهُ - يصف حال جدّتي !... فقد كانت شـديدة التعلّق بالله والسـعي لمرضاته؛ فإن رأيت المصلين فهي منهـم، وإن رأيـت الذاكريـن الله كثيـرًا فهـي منهـم، وإن رأيـت المتصدقيـن فهي منهـم، وإن رأيت التالين لكتـاب الله عز وجل فهي منهم، وإن رأيت الرحماء فهي منهم....

- وما ذكرته عنها من مواقف إنما هو شيء من خلجات الخاطر ورذاذ من العبق العاطر، وإلاّ فالمواقف أكثر من أن تُحصى وأغزر من أن تُستقصى، ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق.

ما أضعفك أيها الإنسان!

● إنَّ أضعـف ما يكـون العبد في حياته في ثلاثـة مواطن: عند المـرض والكبر ولحظات خروج الروح، فيضعف البدن وتخور القوى، فيهذي لسانه بما قد اعتاده من خيرٍ أو شرٍ.

لـك أن تتصـور - أخـي القـارئ - مـن كان مشـغولاً بطاعة الله في صحتـه وقوته وشـبابه وهرمه، أتظـن أنّ الله يخذله في تلك المواطن!

لا، والذي نفسـي بيده! فالخواتيم ميراث السوابق، وربنا جلّ في علاه شكورٌ رحيم.

- كبرت جدّتي وتقدّم بها العمر إلى قرابة التسـعين سنة، وبدأ شيء يسـير من الخرف يدبُّ إليها، فتذكر أمورًا ماضية، ولـم تعد

تعـرف أبناءها وأقاربها في آخـر حياتها، ولكنها تصلّي وتقرأ آيات من القرآن حفظًا وتُكثر من الذكر والدعاء.

- كان قلـب جـدّتي معلقًـا بالصـلاة في قوّتهـا وصحتها، وفي شـيخوختها وضعفهـا وضعـف ذاكرتهـا لا يفتر لسـانها عن ذكر الصـلاة!، فقـد زرتهـا في إحدى المرات قرابة السـاعة الخامسـة والنصـف عصرًا تصلي على غير وضوء، ولا اسـتقبال قبلة، ولا وقت صلاة.

- وفي الليل لها شـأن آخـر :فقد كانت تسـتيقظ في الليل عدة مرات تسأل الخادمة : أذّن؟ صلّيتم؟ صلوا؟.

• قـال ﷺ : «سَـبْعَةٌ يُظِلُّهُـمُ الله في ظِلِّهِ يومَ لا ظِـلَّ إلا ظِلُّهُ... وَرَجُـلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بالْمَسَـاجِدِ»[1]. وكذلك المـرأة إذا كان قلبها معلَّقًا بالصلاة يُرجى أن تكون من هذا الصنف.

وفاتها :

• مهما طالت حياة الإنسان فإن الموت آخر المطاف في رحلة هذه الحياة الدنيا.

كـــؤوسُ الـــمـــوتِ دائـــرةٌ علـينا
ومـــا لـــلـــمـــرءِ بـــدٌّ مـــن نـصـيـبِ

(١) رواه البخاري برقم (١٤٢٣)، ومسلم برقم (١٠٣١).

- تُوفيَّت جدّتي وعمرها قرابة الثلاث والتسعين سنة قَضَتها في عملٍ صالحٍ، وقربةٍ إلى الله، حياة جهاد وكفاح وتضحية، سرعان ما انقضت وطُويَت، وأحسبها ممن قال فيهم ﷺ: «خَيرُ النَّاسِ مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ»(١).

-كانت تقول عن سرعة مرور الأيام والشهور والأعوام عليها: «كأنَّها منام ليل».

- تُوفيَّت على فراشها في غرفتها الساعة الثانية ظهرًا، فما راع من كان عندها إلا وقد انسلَّت رُوحها بيسر وسهولة، وهذا مصداقُ ما أخبر به النبي ﷺ عند خروج روح المؤمن أنها تخرج كما تخرج القطرة من فيِّ السقاء ليُسر خروجها - ولا نزكّي على الله أحدًا -.

ثم انقضتْ تلكَ السنُون وأهلُهَا
فكأنَّها وكأنَّهم أحلامُ

وقد ذكر من حضرها أحوالاً تسرُّ بعد تغسيلها؛ فالوجه قد استدار واستنار، وبشرة وجهها خلت من التجاعيد، وكأنها بشرة فتاة صغيرة!.

---

(١) رواه الترمذي برقم (٢٣٣٠).

وصُلي عليها صلاة المغرب ليلة الواحد من شهر رمضان عام ١٤١٧هـ - رحمها الله - وما زال من يعرفها يشهد لها بالخير، وما زال الأبناء والأحفاد يتذاكرون سيرتها العطرة إلى يومنا هذا - أحسبها والله حسيبها - أن ثناء الناس وشهادتهم لها من علامات حسن الخاتمة فقد قال ﷺ: «مَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَمَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُم شُهَدَاءُ اللهِ فِي الْأَرْضِ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الْأَرْضِ، أَنْتُم شُهَدَاءُ اللهِ فِي الْأَرْضِ»[1].

●● أسأل الله أن يجمعنا بها ووالدينا في دارٍ يدخلها أهلها وهم يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٤ - ٣٥].

(١) رواه مسلم برقم (٩٤٩).

٢ – سارة القاسم

عمّة والدي

«الوَحَادةُ عِبادة»



٢ - سارة بنت محمد القاسم(*)

عمّة والدي : (سارة) تلك المرأة العابدة الزاهدة التقية، ذات الخُلُق الحسن.

تتصف بالحكمة والشجاعة وإدارة المواقف.

واصلة لرحمها، تُحبُّ الأُنس والطرافة.

أحبّت الجميع فأحبُّوها.

حياتها الاجتماعية :

- تزوجت وهي صغيرة، ولم تنجب إلا ابنة واحدة، كانت أُنسها في الحياة.

من المواقف مع هذه الابنة : أن عمتي - في شبابها - حجَّت حجة الإسلام على الإبل - وسيلة التنقل آنذاك - استغرقت الرحلة من الرياض للحج شهرين كاملين، وقد أودعت ابنتها الوحيدة - ذات الأربع سنوات تقريبًا - عند أهل زوجها.

لم يكن في ذلك الوقت وسيلة اتصال للاطمئنان على ابنتها، فالشوق يلثِمه الصبر، وفي الرؤى أحيانًا سلوة، فقد كانت عمتي

(*) قرأت سيرتها على الفاضلة زوجة أخيها عبدالعزيز، وزودتني ببعض الإضافات شكر الله سعيها.

في سفرها ترى ابنتها في المنام كل ليلة مذ سافرت، ثم انقطعت عنها الرؤيا فظنّتْ أنّ ابنتها ماتت.

ولما رجعت من الحج فإذا الابنة حيّة تُرزق، لكن ذكروا لها أنها فقدتها فقدًا شديدًا فلم تعد تشتهي الطعام أيامًا، ولما ذهبوا بها إلى جدتها لأمها وخالتها؛ سرّت البنت ونشطت وأكلت، وهذا سّر انقطاع رؤيتها في المنام؛ فقد قال ﷺ: «**الخالة بمنزلة الأم**»[1].

- مرت الأعوام .....

وبلغت البنت ثمانية عشر عامًا، قدّر الله أن تتوفى هذه الابنة في المستشفى، وكانت عمتي مرافقة لها، فكانت صابرة محتسبة لوفاة قرة عينها، تسترجع أذكار المصيبة، تقول: أيقنت مع هذه الأذكار أنّ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧].

-لم تصدق الممرضات المصريات - العاملات في المستشفى آنذاك - أن هذه المتوفاة ابنتها لما رأوا من صبرها وثباتها، فطلبن من عمتي أن تقسم بالله العظيم أن هذه المتوفاة ابنتها، فأقسمت لهنَّ بالله أنها ابنتها (الوحيدة).

---

(١) رواه أبو داود برقم (٢٢٨٠).

ومن شـدّة حبها لهذه الابنة - أسـأل الله أن يجتمعا في جنته - تحدثنا عن دقائق تفاصيل حياتها والسـاعات الأخيرة من وفاتها، وكأنها تُوفيت بالأمس!

قوة ذاكرتها :

- كانـت تمتاز بقوة الذاكرة وسـرد الوقائـع والأحداث بدقة عجيبة؛ لا يكاد يخفى عليها ميلاد الصغير والكبير من أقاربها، بل وتاريخ زواج فلان وفلان!.

نعم الأخ :

● الأخ هو السند والعضيد لأخته، هو شخص تتكئ عليه عند الملمّات.

الأخ يعني أنّ ألمك هو ألمه، وفرحك هو فرحه.

الأخ زينة في الرخاء، وعُدّة عند البلاء.

مهما طال العمر وفسـح في الأجل يبقى الأخ الكبير هو الأب الثاني لأخته.

- لما توفي زوج عمتي رحلت للسكن عند شقيقها (عبدالعزيز) الـذي كان نعـم الأخ، بـل كان بمثابـة الأب والأخ والـزوج والصديـق، فقـد كان بينهما حُبًّا وأُلفةً قـلَّ أن تجد في هذا الزمان أخًا لأخته كعبدالعزيز لسـارة، كيف به وقد اشـتدت حاجتها إليه بعد أن أصبحت أرملة، والساعي على الأرملة مأجورٌ كما ورد في

الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**السَّاعِى عَلَى الأرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِى سَبِيلِ اللهِ**»، وأحسبه قال: «**كالقائم لا يفتر، وكالصائم لا يفطر**»[1].

- لـه زوجتـان لا تطيـب نفسـه إلا أن تتناول أخته سـارة معه وجبة الغداء يوميًا سواء كان مقامه عند الزوجة الأولى أو الثانية، أما وجبة العشـاء فهي لا تتناول العشـاء أبدًا، تحب أن تنام وهي (خفيفة) على حسب ما ذكرتْ.

- وإذا زارت أبنـاء أخيهـا وباتت عندهم يوميـن أو ثلاثة أتى إليهم وأرجعها معه إلى بيته، تشـتاق إليه ويشـتاق إليها، ولسبب آخر أفصحت عنه وهو أنّ كثرة خلطتها مع الناس تقلل من قراءة وردها اليومي من القرآن الكريم.

- ومـع ما هي فيه من إكـرام وتقدير في بيـت أخيها إلاّ أنها لا تحـب أن تكـون ضيفًا ثقيلاً على زوجة أخيها، فهي تشـاركها في إعداد طعام الغداء بما تسـتطيع، وكانت تخيط ملابسـها بنفسـها وتغسـلها، ولا تحبّ أن تكلّف على أحد شـيئًا .... فكسـبت ودّ الجميع.

---

(١) رواه البخاري برقم (٦٠٠٧).

سرُّ نشاطها في العبادة :

• قال ابن القيم : المؤمن قوته من قلبه، وكلّما قوي قلبه قوي بدنه[١].

- وهذا ما رأيناه من نشاط عمتي في الطاعات، من ذلك :

- سافرت معنا إلى مكة، ولما وصلنا؛ أجهشت بالبكاء فرحًا، وأدّت مناسك العمرة من طواف وسعي على قدميها، رافضة ركوب (العربية) أو أن تجلس للراحة، وكانت في السبعينات من عمرها!

- وفي قيام الليل لها شأن آخر : فقد كانت عمّتي تنام بعد صلاة العشاء مباشرة - لا تتناول طعام العشاء كما أسلفت -، وتستيقظ لقيام الليل الساعات الطوال، ربما يستغرق الثلث الأخير كله، تناجي ربها وتدعوه رغبًا ورهبًا ، في وقت يكون للقلوب من التوجّه والتقرب والرقة ما لا يوجد في غير ذلك الوقت، وقت النزول الإلهي إلى السماء الدنيا وقوله تبارك وتعالى : «هل من داعٍ ؟ هل من سائل؟ هل من تائب؟»[٢] ومن المعلوم أنّ في قيام الليل فضل عظيم كما قال ﷺ : «عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ فَإِنَّهُ دَأَبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ وَهُوَ قُرْبَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ، وَمَنْهَاةٌ عَنْ الْإِثْمِ وَتَكْفِيرٌ

---

(١) انظر الجواب الكافي ص٧١.

(٢) انظر مجموع الفتاوى (٥/ ٢٤١).

لِلسَّــيِّئَاتِ وَمَطْرَدَةٌ لِلدَّاءِ عَنْ الْجَسَــدِ»[١]، قــال الفضيل : أدركت أقوامًا يستحيون من الله من طول الضجعة[٢].

• وقــال الإمام الذهبــي : فأعلى مقامات العبد مــن كان بكّاءً بالليل، بسّامًا بالنهار[٣].

حالها مع القرآن :

• القرآن الكريم لا يمله الأتقياء، ولا يشبع منه العلماء، كيف وهو يشــفع لصاحبه يوم القيامة، قال ﷺ : «اقْــرَءُوا الْقُرْآنَ ، فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَــفِيعًا لِأَصْحَابِهِ»[٤] كيف وهو مبارك على قارئه كمــا قال أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : «إِنَّ الْبَيْتَ لَيَتَّسِــعُ عَلَــى أَهْلِهِ وَتَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ وَتَهْجُرُهُ الشَّيَاطِينُ وَيَكْثُرُ خَيْرُهُ؛ أَنْ يُقْرَأَ فِيهِ الْقُرْآنُ ، وَإِنَّ الْبَيْتَ لَيَضِيــقُ عَلَى أَهْلِهِ وَتَهْجُــرُهُ الْمَلَائِكَةُ وَتَحْضُرُهُ الشَّــيَاطِينُ وَيَقِلُّ خَيْرُهُ؛ أَنْ لا يُقْرَأَ فِيهِ الْقُرْآنُ»[٥].

• وقال بعض المفسرين : «اشــتغلنا بالقرآن فغمرتنا البركات في الدنيا تصديقًا لقوله تعالى : ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾»[٦].

---

(١) رواه الترمذي برقم (٣٥٤٩)، صحيح الجامع برقم (٣٩٥٨).
(٢) صفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ٢٣٨).
(٣) سير أعلام النبلاء (١٠/ ١٤١).
(٤) رواه مسلم برقم (٨٠٤).
(٥) رواه الدارمي برقم (٣٣٠٩).
(٦) العذب المنير من مجالس الشنقيطي في التفسير (٢/ ٥٣١).

- كانت عمّتي تقرأ يوميًا خمسة عشر جزءًا من القرآن الكريم، وتقلُّ قراءتها إلى ثلاثة أجزاء عندما تبيت عند أبناء أخيها لجلوسها معهم واستئناسهم بحديثها، لذا كانت تحرص أن لا تطيل المكوث عندهم - كما أسلفت -.

وكأنها تقول بلسان حالها: -

إذا مضتِ الأوقاتُ في غيرِ طاعةٍ
ولم تكُ محزونًا فذا أعظمُ الخَطْبِ

- وكانت تواظب على قراءة سورة الزُّمرَ والسجدة والمُلْك قبل النوم لورود الأحاديث عن النبي ﷺ[1].

- وقد اكتسبت من كثرة تلاوة القرآن الكريم استحضارها للآيات في مواطنها، ومن ذلك:

- تحدثنا في يوم من أيام الصيف عن طول النهار وقِصر الليل، فتلت هذه الآية: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾[النور: ٤٤].
- وأرادت ذات مرّة النوم لوحدها في فناء بيت أقاربها، فاستوحشوا أن تنام بمفردها، فتلت عليهم هذه الآية: ﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾[الأنبياء: ٤٢].

---

(١) كان ﷺ لا ينام حتى يقرآ (بني إسرائيل) يعني سورة الإسراء و (الزمر) وكان ﷺ لا ينام حتى يقرأ ألم تنزيل السجدة وتبارك الذي بيده الملك)، رواه الترمذي برقم (٣٤٠٥) (٢٨٩٢).

• ورأيتُهــا ذات مــرّةً تقلّب في يدها شــيئًا، تعجّبتْ من دقة صنع الكفــار له وغفلتهم عن الآخــرة، فتلت هذه الآية: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم: ٧]، ولكأنّي ما سمعتُ بهذه الآية إلا الساعة!

حرصها على تطبيق السنّة:

كانــت عمتي حريصة على تطبيق الســنن الواردة عن نبينا ﷺ ومــن ذلك الاحتفاء، فقد ورد في حديث فضالة رضي الله عنه: كان النبي ﷺ يأمرنا أن نحتفي أحيانًا[1]، أي: نمشــي حفاة حينًا بعد حين، تواضعًا وكسرًا للنفس.

من دُرَر كلامها:

• قال بعض الســلف: اقتربوا من أفواه الصالحين فإنها تنطق بالحكمة.

- هــذا مــا رأيناه من عمّتي؛ كان لها بعــض العبارات الرصينة التي هي بمثابة حكم ودروس قصيرة، منها:

---

(١) رواه أبــو داود برقم (٤١٦٠)، وقد ذكر الشــيخ محمد بن عثيمين أن الرجل إذا كان قدوة في بلده ومشــهورًا بالعلم، فإنّه يمشــي حافيًا أحيانًا أمام الناس، لأنّهم يعلمون بذلك أنّه من الســنّة، أما إذا لم يكن الرجل كذلك، وســتناله الألسن فإنه يمكن أن يكتفي بفعلها في بيته، أو حيث لا يراه الجهّال.

- «الوَحَادَة عِبَادة»[١] :

يعني أن المسلم العابد عندما يكون لِوَحْدِه يتفرغ للعبادة أكثر مما لو كان مع جماعة.

- «إكرام النفس هداها» :

الشائع عند بعض الناس : إكرام النفس هواها، والحقيقة أن أعظم إكرام للنفس إكرامها بالطاعة، قال تعالى : ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج : ١٨].

- «الله لا يخزينا» :

تردُّ بها على من تسمعه من العوّام يقول : (يا خزياه).

وما أجمل هذه الدعوة فقد حكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام قوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء : ٨٧]. فانتفاء الخزي يومئذ يستلزم الكرامة.

- «من حِيبلي إلى رحمة ربي» :

تصحح على بعض كبيرات السن اللاتي يدعين بلهجتهن العامية : (من حِيبلي إلى قبيري)[٢]، فالقبر إما روضة من رياض

---

(١) مقصدها : ترك الخلطة الدنيوية إذا طال بها المجلس، وإلا ففي الحديث عنه ﷺ : (المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجرًا من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم) رواه الترمذي برقم (٥٢٠٧)، فللخلطة منافع جمّة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعيادة المريض و...

(٢) (من حيبلي) : أي من نشاطي وقوتي وخدمتي لنفسي (إلى قبيري) : تصغير كلمة قبري.

الجنة أو حفرة من حفر النار.

• «كثير الحركة»:

كانت متفائلة في اختيار ألفاظها، تنهى الأم أن تصف ابنها بأنَّه (شقيّ) لبغضها لمعنى (الشقاوة)، وتستبدلها بأنه كثير الحركة، وكثيرًا ما كانت توصي من كان ابنها كثير البكاء؛ بالتهليل في وجهه.

حجابها:

• الحجاب فرضه الله جلَّ وعلا من فوق سبع سموات، آمرًا به نساء المؤمنين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

فعلى المسلمة الستر والحشمة وأن يكون حجابها على الشروط التالية: لا يشف - لا يصف - لا يكون ملفتًا للنظر.

- كانت عمّتي شديدة الستر؛ شامخة بحجابها، مزدانة بحيائها، تتدثر بعباءة ثقيلة قد خاطت فتحة اليدين حتى لا تخرج يداها أبدًا، وقد كانت تشابه والدتها في الستر والحشمة.

- فمن المواقف لوالدتها - رحمها الله - الكبيرة في السن: أنها آلمتها أذنها، فلما ذهبت إلى طبيب الأذن والحنجرة، طلب منها أن يكشف على أذنها فغطّت وجهها وأخرجت أذنها فقط، فطلب منها الطبيب أن تكشف وجهها من جهة (الأذن) فسال الدمع من عينيها!

يا حسرة على بعض بنات المسلمين وتَسَاهُلِهِنّ في الحجاب!

هذه امرأة كبيرة من القواعد تبكي عندما طلب منها الطبيب - لضرورة - كشف جزء من وجهها، كيف بمن تتعمد إظهار وجهها وزينتها للرجال؟! إلى الله المشتكى!

ما أجمل الوفاء :

- حججتُ معها في إحدى السنوات، وأمرت من يذبح لها الأضحية أن تكون عنها وعن والديها وابنتها وزوجها (وزوجة خالها)... ثم أثنتْ على زوجة خالها ودعتْ لها بالرحمة، وذكرتْ لنا أنها قد أقامتْ عند خالها فترة من الزمن وهي صغيرة فأحسنتْ زوجة خالها وفادتها وأكرمتها، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان..

مَن يَفعَلِ الخَيرَ لا يَعدَم جَوازِيَهُ
لا يَذهَبُ العُرفُ بَينَ اللهِ وَالناسِ

يا لروعة النقاء في قلوب الأتقياء!

ويا لجمال الوفاء للأحياء، فكيف بالوفاء لمن آل إلى الفناء!

وصدق ﷺ: «**وإنَّ حسن العهد من الإيمان**»[1].

صبرها وتجلدها :

- كانت عمتي صبورة شجاعة:

١ - حدثتني بموقف قديم حصل لها وهي في ريعان شبابها،

---

(١) رواه الحاكم برقم (٤١).

لما قدمت إليها ابنة خالتها – وهي أمّ لأربعة أبناء – لتوليدها(*) قالت :

- تعسّـرتْ ولادة ابنة خالتي، فكانت تمشي في أرجاء المنزل لعل المشـي يسـهل أمر الولادة، وكنتُ أعمل الغداء، قالت وقد حلّت بها شدّة وكرب عظيم :- هذه ليست الولادة التي أعرفها!!

قلت : (يسهّل الله)!.

وبعد قليل ...

سـمعتها تنطق بالشهادة! فأقبلتُ إليها مُسرعة فإذا هي ممدّدة علـى الأرض، وقد فاضتْ روحهـا – رحمها الله – تيقّنتُ وفاتها فأسدلتُ عليها اللحاف، إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

استرجعتْ عمّتي بقلب مؤمن راضٍ بقضاء الله وقدره، ورغم شـدّة الموقـف إلاّ أنها تجلّدت وصبرت وعـادتْ لإكمال بعض مهـام منزلهـا إلى أن جـاء زوج المـرأة وبلّغتهْ الخـبر، وعزّتْهُ في زوجته.

عمّتـي لها قلب يحزن كما نحزن، ويتألم كما نتألم، ولكن الله حباها قوة إيمان وصبر وتجلد ورباطة جأش.

أَغَـــرَّكَ مـنـيّ في الـــرَزَايــا تَـجـلّـدِي
ولـــم تَـــدْرِ مـا يُـخْـفِـى الـفـؤادُ الـمـلُـوَّعُ

(*) قبل أن تُفتح المستشفيات.

٢ - توفيّت والدتها - رحمها الله - ليلاً وهي في بيتها، وإليك تفصيل ما حدث كما روته لي :

لما توفيّت أمي حزنت على فراقها، فلم أنم تلك الليلة؛ فقد كنتُ أضمُّها على صدري - تُهَدِّئ روعة تضطرم في صدرها - ، وأدعو : «اللهم آجرني في مصيبتي، واخلفني خيرًا منها»، كنت أرى المصاب جلل، والخطب عظيم، ولكن حينما أدعو وأكرر «اللهم لا تجعل مصيبتي في ديني» يهون عليّ مصابي في وفاة أمي.

وكُلُّ كَسرٍ لعلّ اللهَ جَابِرُهُ
وما لكَسْرِ قناةِ الدِّينِ جُبْرَانُ

وصدقتْ : فمصيبة الدّين أعظم المصائب، وأشدُّ الرزايا.

كلُّ المُصيباتِ إنْ جلّتْ وإنْ عَظُمتْ
إلا المصيباتِ في دينِ الفتى جللُ

وفي ضحى الغد غسّلتْ والدتها وكفّنتها وودّعتها على أمل اللقاء في جنّات عَدْنٍ بإذن الله، فلو لا أمل اللقاء لتقطّعت الأكباد من حرّ الفراق.

٣ - لما توفيّ عمّي الأكبر (عبدالله) - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - كانت هي من طلبت أن تبلّغ والدته (جدّتي) خبر وفاته، بلغتها ولقّنتها كلمات الاسترجاع، فكانت جدّتي لا تنسى لها تذكيرها بالصبر

والاسترجاع عند الصدمة الأولى كما قال ﷺ: «إِنَّما الصَّبرُ عند الصَّدمةِ الأُولَى»[1].

٤ - أصابها ألم شديد وهي تصلّي، حدثتني به:

قالت: كنتُ أصلي صلاة الظهر فأُغمي عليّ، فما استفقتُ إلا والطبيب عند رأسي، وأنا أرحّبُ بالموت!.

قلت لها وأنا في ذهول وتعجب: يا عمّتي، ألا تخافين من الموت؟ ألا تخافين من القبر؟

قالت: ولِمَ أخاف؟! (مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءهُ)[2].

لُجمتُ، وكأني أسمع الحديث لأول مرة!.

لسان حالها:

وما ضرّني أنيّ إلى اللهِ صَائرُ
ومَنْ هو مِنْ أهلي أبرُّ وأرحمُ

---

(١) رواه البخاري برقم (١٢٨٣).

(٢) رواه البخاري برقم (٦٥٠٧)، وتمامه: قال ﷺ: (مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءهُ) قَالَتْ عَائِشَةُ أَوْ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ إِنَّا لَنَكْرَهُ الْمَوْتَ قَالَ: (لَيْسَ ذَاكِ وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللهِ وَكَرَامَتِهِ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ وَأَحَبَّ اللهُ لِقَاءهُ وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللهِ وَعُقُوبَتِهِ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ وَكَرِهَ اللهُ لِقَاءهُ).

هكـذا المؤمن المسـتعد للقاء ربّه يحبّ أن يلقى ربّه محسـنًا الظـن بـه بأن يثيبه على ما قدّم من عمل صالح، والله سـبحانه هو البَرُّ الرحيم.

٥ - أصيبـتْ بورم صغير في رأسـها، وفي بادئ الأمر لم تخبر أحـدًا ،فقد كانت تَرْقِي نفسـها بالقرآن الكريم، فإذا رَقَتْ نفسـها سكن، وإذا غفلت ازداد حجمه.

ولما أصبح هذا الورم يخرج منه صديد فيتسخ منه خمارها - الذي تلفه على رأسها - حينئذ طلبت من قريب لها أن يذهب بها إلى المستشفى، حرصًا منها على كمال طهارة اللباس في الصلاة.

وفي مستشفى الملك خالد الجامعي....

تبيّـن بعد الفحـص الطبي أن في رأسـها وصدرها ورم، ولا بد من استئصاله.

وافقتْ على استئصال ورم الرأس فقط، أما ورم الصدر فأبتْ حياءً وسترًا.

- **وفي يوم العملية كما روت لي :**

أسـدل الممرضات اللّحاف على وجهي وجسـدي وساقوني إلـى غرفـة العمليات، ولما كشـفن الغطـاء عنـي؛ أفزعني رؤية الأطباء لي وأنا كاشفة الوجه!

فقلت : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، أقول ما قالت مريم : ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ [مريم : ٢٣].

الله أكبر !

شق عليها لحيائها وهي في أواخر السبعينات من عمرها أن يراها الرجال - الأطباء - ولو في حالة الاضطرار!.

وفي غرفة التنويم ....

جاء الطبيب الهندي الذي أجرى لها العملية ليطمئن عليها، فطلبت من قريبها أن يسأله عن صلاته، هل يحافظ عليها؟

قال : إنه هندوسي!

هزّها جوابه! ارتعدت، خافت عليه من النار التي توعد الله بها الكافرين...

خرجت من المستشفى بعد أيام.

تقول : ما ختمتُ القرآن الكريم بعد العملية إلا وأنا أدعو الله له أن يفتح على بصيرته.

فقد أحسن إليها في إجراء العملية و﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن : ٦٠]، فأحسنت إليه بأعظم إحسان؛ وهو الدعاء له أن ينير الله بصيرته فيدخل في عِداد السعداء في الدنيا والآخرة.

وفاتها :

- وبعد أعوام ... مرضتْ عمّتي مرضًا شديدًا، فهزل جسمها وضعفت، وكانت الآلام لا تبارحها، وهي صابرة محتسبة، وكثيرًا ما كانت تلهج بالدعاء أن يُحسن الله خاتمتها، وتعزّي نفسها ومن حولها بأن الدنيا لم تصف للأنبياء ولا للمرسلين أتصفو لنا!

وفي يوم الإثنين من الشهر الخامس لعام ١٤٢٢ هـ، وهي تصلي صلاة الظهر، أطالت السجود وأطالت السجود....

وارتاب أخوها - عمي - من طول سجودها، وإذا المفاجأة! لقد ماتت وهي ساجدة!

• قال ابن رجب : الخاتمة الحسنة لا تقع إلا لمن كانت سريرته حسنة، لحظة الموت لا يمكن تصنعها فلا يخرج إلا مكنون القلب.

- توفيّتْ - رحمها الله - وهي في الثمانينات من عمرها؛ قضته في طاعات وقربات، وختم لها بخاتمة حسنة لطالما دعت أن يختم الله لها بالصالحات فاستجاب الله دعاءها.

• قال ﷺ : «مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ خُتِمَ لَهُ بِهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ صَلَّى صَلَاةً ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ خُتِمَ لَهُ بِهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ صَامَ يَوْمًا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ خُتِمَ لَهُ بِهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ

تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ خُتِمَ لَهُ بِهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»[1].

اللهم إنا نسـألك حسـن الختام ... رحمها الله رحمة واسـعة وجمعنا بها ووالدينا وذريّاتنا في جنّات النعيم.

(١) رواه أحمد برقم (٢٣٣٢٤) قال محققوه : صحيح لغيره.

٣ - مها الدّبل

تلميذتي البرَّة

«كم في البلايا من عطايا»



٣ - مها بنت محمد الدَّبل

ذات يوم ... قرأت قصيدة رثاء[١] للشاعر الدكتور/ محمد بن سعد الدَّبل يرثي فيها زوجته التي توفيت[٢] وتركت له صغيرين (مها وسعد).

من أبياتها المؤثرة :

مَهَا وسعدُ إذا نـاداك صوتُهُمَا
في ظُلْمةِ اللّيلِ من للأَصْغَرِ الغَالي
لولا صَغِيرانِ يَحْتَاجَانِ رَاعيةً
ما رُمتُ بعدكِ بِنتَ العمِّ والخالِ
أَشْكُو إلى اللهِ ما في الكَبدِ مِن كَمَدٍ
فهوَ العَليمُ بإلحاحِي وتسآلي
سبقتِ والكلُّ ماضٍ حولَ مصرعِهِ
أَفْرادُ قومٍ وجيلٌ بَعد أجيالِ

- تأثرتُ بهذه الأبيات كثيرًا، وأشفقت على (مها وسعد)، ولم يدر في خلدي أني سألتقي بـ(مها) في يومٍ ما، بل وتصبح صديقة وأختًا لي لم تلدها أمي.

---

(١) نشرها في ديوانه (إسلاميات).

(٢) توفيت في حادث وهي في طريقها للحج - رحمها الله - .

اللقاء الأول :

- كُنتُ معلمة لمادة القرآن الكريم في إحدى ثانويات الرياض، دخلتُ أحد الفصول وبعد أن بدأت بالدرس : قرأت بعض الآيات وناقشت بعض معاني المفردات، جاء دور الطالبات لقراءة بقية الآيات المحددة لهذه الحصة الدراسية، نظرت إلى قائمة أسماء الطالبات لاختيار طالبة تقرأ... وقعتْ عيني على اسم (مها بنت محمد سعد الدبل)!

سبحان الله!

إنّه الاسم الذي رقَّ له قلبي وأشفق عليه يومًا ما!!

أهذه مها المذكورة في قصيدة والدها ؟!

أين مها الدَّبل؟

رفعتْ يدها، نظرتُ إليها.. وفي خُلْدي لها حكاية منسوجة شفقةً ورحمة.

قلت : اقرئي من سورة البقرة آية (....)، قرأتْ مها وأخطأتْ في بعض الكلمات، وكانتْ تحاول ترتيل الآيات.

كانت مها تقرأ، وأنا أنصتُ لها، وقصيدة والدها ماثلة أمامي!!

أحسست بشعور الاحتواء لها فعزمت على أن أثني عليها وأشدُّ من أزرها.

انتهتْ من القراءة، أثنيتُ عليها : «وفقكِ الله، محاولة جيدة،

ليتك تستمعين إلى شريط تسجيل لأحد القراء، بارك الله فيك».

لم أعلم أن لهذه العبارة وقعٌ كبير في قلبها!

وبعد مدة قصيرة انقطعت مها عن الدراسة، ولم أعد أعرف عن أخبارها شيئًا.

اللقاء الثاني :

بعد سنوات ....

وإذا بإحدى نساء الجيران تدعوني لاجتماع بعض نساء (الحي) في بيتها.

لبّيت الدعوة...

كان في المجلس قرابة عشر نساء، إحداهن برفقتها ثلاثة أطفال صغار، تسارقني النظر من حين لآخر، كأنها تريد أن تقول شيئًا ما! ثم ابتدأت الحوار معي :

- أنت أستاذة فلانة؟

قلت : نعم.

- لقد درستني في الصف الأول الثانوي، أنا مها الدَّبل.

لم أعرفها فقد تغيّرت عليّ كثيرًا.

- ثم أردفتْ قائلة : لا أنسى يا أستاذتي تشجيعك لي بكلمات ودعوات طيبة بعد أن قرأت آيات من سورة البقرة!.

قلت في نفسي : وأنا كذلك لم أنس قصيدة والدك، ولا

قراءتك، ودعواتي لكِ...

كنت تمثلين لي حكاية حب وشفقة وحُنوّ.

- قالت: أنا يا أستاذتي فيَّ خير دفين، لقد فقدتُ أمي وعمري لا يتجاوز السنة والنصف تقريبًا، وتعلمين أن الأم هي الموجه والمرشد الأول، لكن أبشرك بأن دعواتك الطيبة وثناءك عليّ أيقظ ما في داخلي من خير...، أحببت بعدها قراءة القرآن الكريم، ولا أكاد أقرأ تلك الآيات التي أثنيت عليّ فيها إلاّ وأتذكر ذلك الموقف معك، فكم كان تأثير كلماتك الطيبة كبيرًا في قلبي.

وانتهى الحوار.

أيها المعلمون:

أُسجل هذا الموقف مع طالبتي وأنا مترددة أأسطره هنا أم لا؟!
- أسأل الله القبول والإخلاص - ليعلم المعلمون والمربّون أن الكلمات الطيبة والدعوات المباركة منكم لطلابكم مما لا تلقون لها بالاً تؤثر في الطلاب أيّما تأثير... فلا تبخلوا عليهم!.

ألم يكتب الإمام البخاري - رَحِمَهُ اللَّهُ - الأحاديث الصحيحة المرويّة عن نبينا محمد ﷺ لما قال شيخه (إسحاق بن راهويه): لو جمعتم كتابًا مختصرًا لسنن النبي -ﷺ- فوقع ذلك في قلبه[1]

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٠١).

وشرع في كتابه لمدة ست عشر سنة ثم تلقت الأمة كتابه بالقبول، وصار كتابه أصح كتابٍ بعد كتاب الله تعالى.

• وكذا الإمام الذهبي - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - اشتغل بالحديث حتى صار من أئمة الحديث لما قال له شيخه البرزالي : خطّك يشبه خطّ المحدثين[1].

لله العجب!

كم كلمة طيبة -بتوفيق الله-؛ أصلحت أقوامًا، وصنعت مجدًا، وبنت صرحًا، وخلدت ذكرًا.

فشمروا بالهمة، وأحسنوا الغرس؛ يحسن الحصاد.

• قال بعض السلف : ربَّ كلمة لا يلقي العبد لها بالاً يركض بها إلى أعلى عليين في جوار رب العالمين.

الوفاء وحسن العهد :

• قال ﷺ : «**وَإِنَّ حُسْنَ الْعَهْدِ مِنَ الْإِيمَانِ**»[2].

- بعد مُدة.

هاتفتني مها وزارتني في بيتي، فما وجدتها إلاّ وفيّة العِشْرة، صادقة الوُد، حسنة العهد، فتوثقت العلاقة بيني وبينها؛ لذا صرت أعدها الأخت والصديقة.

---

(١) الدرر الكامنة لابن حجر (١/ ٤٢٣).

(٢) سبق تخريجه.

سلامة الصدر :

• صفاء السـريرة وسلامة الصدر من صفات المتقين، يتحلّى بها عباد الله الصالحين...

قال ﷺ : «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ أَخْلاَقًا»[١].

وسُـئل ﷺ عن أفضل النـاس قال : «مَخْمُـومِ الْقَلْبِ صَدُوقِ اللِّسَـانِ» قالوا : يا رسول الله؛ صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلـب؟ قـال : «هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ ، لَا إِثْمَ فِيـهِ ، وَلَا بَغْيَ ، وَلَا غِلَّ ، وَلَا حَسَدَ»[٢].

• وممـا يُـروى في هذا: أنّه دُخل على أبي دُجانة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - في مـرض موته، وكان وجهه يتهلّـل، فقيل له في ذلك، فقال : ما من عمل شيء أوثق عندي من اثنتين : كنتُ لا أتكلم فيما لا يعنيني، والأخرى كان قلبي للمسلمين سليمًا[٣].

- تمتلك مها صدرًا سـليمًا، وقلبًا طيبًا، وسـريرة نقيّة فلا غلّ ولا حقـد، بـل هو الحبّ والعطاء ومسـاعدة الآخريـن، وتفريج كربهم، فمثلها يندُر في هذا الزمان!- أحسبها والله حسيبها -.

---

(١) رواه الترمذي برقم (١١٦٢).

(٢) رواه ابن ماجة برقم (٤٢١٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه برقم (٣٣٩٧) مخموم القلب : وهو من خممت البيت إذا كنسته.

(٣) سير أعلام النبلاء (١/ ٢٤٣).

رؤيا عجيبة :

- أخبرتني مها برؤيا عجيبة رأتها ...

تقول : لقد توفيت والدتي وأنا صغيرة لا أدرك، فلا أذكرها ولا أعي ملامحها، اشتقت لرؤيتها، دعوت الله وبكيت وألححت في المسألة أن أراها في المنام.

استجاب الله دعائي فرأيت في تلك الليلة : أرضًا خضراء واسعة، وإذا بامرأة شابة ، شعرها طويل، واضعة يديها على خاصرتها، قربت مني وقالت بالعامية : «رأيتني، خلاص؟» ثم ولّت تمشي في هذه الأرض الخضراء وكأنها (تتبختر) كطفل صغير يلهو فرحًا، ورأيت أشجارًا يتدلّى منها ثمار يستطيع الواقف والقاعد أن يقطف منها، وسمعت صوتًا يتلو هذه الآيات: ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة : ٢٢-٢٤].

وانتهت الرؤيا..

وفي الغد؛ هاتفتُ خالتي وذكرتُ لها الرؤيا، ووصفتُ لها تلك المرأة، فقالت : هذه أمك، هذا وصفها!

بعد ذلك... سألتُ معبر الرؤى عن رؤياي هذه، فقال : إن صدقتْ رؤياك فأمك في الجنة - إن شاء الله - فبكيت وبكى المعبّر معي!.

محْنة في طيّاتها منْحة :

• الله سبحانه عليم حكيم، لا يقضي قضاء إلا وفيه تمام العلم والحكمة والرحمة.

كم في البلايا من عطايا، وكم في المحن من منح!

- قدَّر الله لمها هذا الموقف الذي كانت عاقبته حميدة، وإن كان أوّله مكروهًا للنفس ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ [يوسف : ١٠٠].

- وإليك - أخي القارئ - تفصيله :

طلب منها أُناس سلفة قدرها (عشرة آلاف ريال) وهي لا تملك هذا المبلغ، لكن لحُسن خلقها وطيبتها لم تستطع الاعتذار منهم، فاقترضت المبلغ من قريبة لها، وسلمته لهم بدون توثيق، وهذا يُعدّ تفريطًا، فقد أرشد الله عباده أن يكتبوا الحق صغيرًا كان أو كبيرًا: ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾[البقرة : ٢٨٢].

ومرت الأيام والشهور .....

أرادت مها من أهل السلفة إرجاع المبلغ، فاتصلتْ على هاتف بيتهم وهاتف الأب وهاتف الأم مرات ومرات، ولا مجيب!.

أيقنت مها أنها خُدعت، وأنّ السلفة لن تعود، والله المستعان!.

يا حسرة على هؤلاء وأمثالهم..

ليت شعري كيف يطيب لهم العيش وقد أكلوا أموال الناس

بالباطل باسم السلفة؟!، وقد قال ﷺ: «أَيُّمَا رَجُلٍ يَدِينُ دَيْنًا وَهُوَ مُجْمِعٌ أَنْ لا يُوَفِّيَهُ إِيَّاهُ لَقِيَ اللهَ سَارِقًا»[1].

أدركتْ مها أنها أخطأت في عدم توثيق السلفة، وأنه يجب عليها أن ترد العشرة آلاف إلى صاحبتها، ولكن أنَّى لها ذلك وهي ربّة منزل وليس لها دخل شهري!.

فامتهنت ببيع بعض الحاجيات للجيران والأقارب حتى جمعت (ثلاثة عشر ألف ريال)، سلمت (عشرة آلاف) سلفة قريبتها، وباقي المبلغ أنفقته في أعمال الخير..

- راقت لمها هذه الفكرة، فاستمرت في البيع، والريع يُصرف في الأعمال الخيرية: فشاركتْ في تأثيث بيت للفقراء، وحجة عن والدتها المتوفاة، وساهمت بمبلغ في بناء مسجد ومشاريع أخرى.

صُنْعُ الجميلِ وفِعْلُ الخيرِ إن أُثِرا
أبقى وأحمدُ أعمال الفتى أَثَرا

سبحان مدبر الأمور!.

كان لخديعة السلفة غلق بابِ الوفاء من أهل السلفة، وفتح بابِ خيرٍ لمها ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٩].

---

(١) رواه ابن ماجه برقم (٢٤١٠) وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه برقم (١٩٥٤)، يدين: يستقرض، مجمع: من أجمع، بمعنى عزم.

كـم نـعـمـةٍ مـطـويّـة لـكْ
بـيـن أنـيـابِ الـنـوائِـب
ومـسـرّةٍ قـد أقـبـلـتْ
مـن حـيـث تـرتـقـب الـمـصـائِـب

فائدة عظيمة :

• تتحوّل الأعمال الدنيوية المباحة كالأكل والشرب والنوم والسفر إلى عبادة بالنية الطيبة.

• قال ابن القيم : إنَّ خواص المقرّبين هم الذين انقلبت المباحات في حقّهم إلى طاعات وقربات بالنية[١]، فما من شيء من المباحات إلا ويحتمل نيّة أو نيّات حسنة تصير بها قربات وينال بها معالي الدرجات، وإنما تتيسر في الغالب لمن قلبه يميل إلى الدين دون الدنيا[٢].

- هكذا كان حال مها عندما علمت بهذه الفائدة الجليلة منذ أن سمعتها عملتْ بها..

من ذلك :

- قالت لي : إنني ولله الحمد أتعبد بسفري المباح في أرجاء

(١) مدارج السالكين ١/ ٨٣، ومن ذلك تناول الطعام بنية التقوي على الطاعة، إدخال السرور على الحزين والمهموم...
(٢) مختصر منهاج القاصدين للمقدسي، ص ٣٦٢.

بـلادي بنوايا عديدة طيبة ليتحول سـفري إلى عبـادة؛ فأتفكر في آيات الله والنظر في ملكوته؛ قمرٌ منيرٌ، وجبالٌ راسـخة، وأشـجارٌ يانعـة في صحراء قاحلة.. أتأمل صنـع الله فيرق القلب لله إخباتًا، ويلهج اللسـان تسـبيحًا وتهليلاً، فمطيّتي الذكر والتفكر، وغايتي رسم البسمة على وجوه عائلتي..

بل لا أكتمكِ سـرًّا أني أصبحت أُحبُّ السـفر عـن طريق البّر لأحصل على أجر هذه النوايا الطيبة.

التوسل إلى الله بالعمل الصالح :

في يـومٍ ما ...كانـت نيّة بعض أفراد عائلة مها السـفر للخارج لكنّهـا رفضـت تعبـدًا لله، فعُدلـت السـفرة إلـى إحـدى مناطق المملكـة، وهناك ذهبت العائلة إلى أحد الأسـواق لشـراء بعض الحاجيـات بعد صلاة العشـاء، أما مها فآثـرت الانتظار في ظلام الليـل مـع (فـارس) في السـيارة، وأبـت النـزول لوجـود بعض المنكرات في هذا السوق.

كان صغيرها (فارس) الذي لا يتجاوز عمره أربعة أشهر، لا يحرك يده اليمنى منذ ولادته ، وقد قرّر الأطباء له جلسات علاج طبيعي.

وأثناء الانتظار في السـيارة تذكّـرتْ حديث الثلاثة الذين آووا إلـى الغار فانطبق عليهم فتوسّـل كل واحد منهـم بعمله الصالح فانفرجت الصخرة.

فتوسلتْ إلى الله بعدم دخولها السوق ابتغاء وجه الله لما فيه من المنكرات أن يُشفي سُبحانه ابنها، وألحّتْ على الله بالدعاء أن يُفرج كربه...

وارفَع يديكَ إلى السماءِ فَفَوقَها
ربٌّ إذا ناديتَهُ ما ضيّعك

وما أن انبلج الصباح إلاّ - وبفضل الله - تحركت يد (فارس) ولم يحتج إلى العلاج الطبيعي.!.

- وفي الصباح الباكر بشرتني مها، حمدتُ الله على هذه النعمة، هنأتها بشفائه، وقد منَّ الله عليَّ برؤية (فارس) قبل أن تتحرّك يده، وبعد أن تحرّكت، ورأيت مصداق الدعوة الصالحة من المرأة الصالحة، فسبحان القريب المجيب، ما خاب من طرق بابه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

وسبحان الذي جعل لكل شيء قدرًا، وصدق رسوله ﷺ: «إنك لن تَدَعْ شيئًا لله إلاّ بدّلك الله به ما هو خيرٌ لك منه»[(١)].

المكالمة الأخيرة!

كانت مها حاملاً في شهرها الثامن، هاتفتني عصر يوم الخميس وأخبرتني بأنّ أعراض الولادة المبكرة قد بدأت، وأنها في طريقها

(١) رواه أحمد برقم (٢٣٠٧٤) قال محققوه: صحيح لغيره.

للمستشفى، وهل يجب عليها الصلاة وهي على هذا الحال؟!

وفي المســاء هاتفتها لأطمئن عليها، فأخبرتني أنها تنتظر قدوم طبيبة الولادة للكشف عليها.

ولم أعلم أن هذه المكالمة هي المكالمة الأخيرة التي أســمع فيها صوت مها!.

وفي غرفة الولادة :

الســاعة الحاديــة عشــرة صباحًــا مــن يــوم الجمعــة الموافق ٢٦/ ٦/ ١٤٣٠هـ، تعسّــرت ولادة مها، بلغ منها الكرب والشدة مبلغهــا، تأخــر الأطباء في إجــراء العملية القيصريــة، أصيبت مها بنزيف شــديد أثنــاء الولادة احتاجت لنقــل دم، لحظات عصيبة، أُغمــي عليها ثم أفاقت وذكــرت الله - كما ذكر الطبيب لأهلها - ثم عاودها الإغماء... وبعدها ذهبت لجوار ربها!.

ماتــت مها، وأحيا الله بُنيتهــا (جود) التي لم ترَ أمها، ولم ترها أمهــا، ليكون تاريخ وفاة الأم؛ هو تاريــخ ميلاد البنت، ولله الأمر من قبل ومن بعد....

على ذا مَضَى النـاسُ اجتماعٌ وفرقةٌ
ومـيّـتٌ ومـولـودٌ وبِـشْـرٌ وأحـزانُ

نالــت مها - رحمها الله - حســن الخاتمة التــي طالما تمنتها وسألت الله أن يرزقها إيّاها، فأكرمها سبحانه بثلاث مبشرات :

فقد ذكرت الله سبحانه قُبيل وفاتها، وماتت في نفاس، وماتت يوم الجمعة، وقد قال نبينا ﷺ: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ خُتِمَ لَهُ بِهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»(1)، وقال ﷺ: «وَالْمَرْأَةُ تَمُوتُ بِجُمْعٍ شَهِيدٌ»(2)، وقال ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَوْ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ إِلَّا وَقَاهُ اللهُ فِتْنَةَ الْقَبْرِ»(3).

نرجو الله بمنه وكرمه أن تكون من الشهداء السعداء - ولا نزكّي على الله أحدًا -.

• فمذهب أهل السنة والجماعة: أن لا نشهد لأحد من أهل القبلة بجنة أو نار إلا من شهد له النص، ولكن نرجو للمحسن الثواب، ونخاف على المسيء العقاب.

وفي مغسلة الأموات:

دخلتُ إلى هذا المكان المهيب الذي سندخله جميعًا مهما طال بنا العمر أو قَصُر، ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

شعور عميق بالرهبة والخوف.

ترى النعش والأكفان والكافور والسدر فيخفت صوتُك،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه أبو داود برقم (٣١١١) قال محققوه: حديث صحيح، بجمع: أي في نفاسها بسبب ولدها أو هي حامل به.

(٣) رواه الترمذي برقم (٢٨٩٠)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣٥٣٧).

وتموتُ ابتسـامتك، ، وتصغُر الدنيا في عينيك، وتتلاشى أمنياتُك الدنيوية، وتفكر في مصيرك فما ثَمَّ إلاّ جنّة أو نار!

في مغسلة الأموات.

كأنـك تقرأ على جدرانها رسـالة للأحياء: «اسـتعدّوا قبل أن تقدِموا عليّ».

أزحنا الستارة..

رأيت (مها) مسجاة على النعش.

شاركت في تغسيلها وتكفينها وفاءً للأخوة في الله.

ودعتها الوداع الأخير.

صَغُـرَتْ الدنيا في عيني، سـاعات معدودة بين سـماع صوتها وسماع خبر وفاتها.

ثم تغسيلها وتكفينها والصلاة عليها.

انقضى عمرها، وطُوِيت صحيفة عملها، وقامت قيامتها.

كنّـا نرجو التلاقي على وعدٍ في يوم السـبت، وما علِمْتُ وما عَلِمَتْ أنّ يوم السبت هو يوم الصلاة عليها.

يا لحقارة الدنيا ونحن نلهث خلفها، فمتى نَعِي؟!

قـال ابن القيم: كُنْ من أبناء الآخرة، ولا تكنْ من أبناء الدنيا، فإن الولد يتبع الأم[1].

---

(١) الفوائد، ص ٨٠.

وصيّة مها لابنتها سارة :-

شعرت مها بتعب في جسدها قبل وفاتها بأسبوعين ، وكأنها أحسّت بدنو أجلها فأوصت ابنتها الكبرى (سارة) رمز البر والوفاء، بوصيتين : أولاهما : تسمية المولودة القادمة باسم (جود).
الثانية : إنْ تقدم لك يا ابنتي الخُطّاب فعليك بـ (محمد) - قريبٌ لهم - فهو بارٌ بأمه.

وبعد مضي ثلاثة أعوام من وفاتها تقدم الخُطّاب لسارة ومنهم (محمد) فقبلته، وكانت الوصية على وقعها.

وكان أبوهما صالحًا :

بعد مُدة أخلف الله على زوج مها وأبنائها بخلف حسن، فقد تزوج بامرأة أخرى أحسنت إلى أبنائه، وهي بمثابة الأم لهم، فجزاها الله خيرًا وأحسن إليها.

وما زال أثر التربية الحسنة واضحًا على أبناء مها، فـ(سارة) ابنتها الكبرى قامت بمسؤولية البيت بعد وفاة أمها، ومن حين لآخر تهاتفني للسلام عليَّ عملاً بحديث النبي - ﷺ - : « إِنَّ أَبَرَّ الْبِرِّ صِلَةُ الْوَلَدِ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ »[1].

أسأل الله أن يجمعنا بمها ووالدينا وذريّاتنا وأحبابنا في جنّات النعيم.

---

(١) رواه مسلم برقم (١٩٧٩).

٤ - السجينة بلقيس

«المحبوس من حبس قلبه عن ربه»

«كم في طيّات المكروه من حِكَمْ»



٤ - السجينة بلقيس

(بلقيس) شـابّة نصرانية إفريقية ، قدمت من بلادها (النيجر) إلـى مدينة (جـدة) مع عصابـة لتهريب المخـدرات، كانوا ثلاثة رجال وامرأتين.

تـم القبـض - ولله الحمـد - علـى هـذه العصابـة، وصـدر الحكـم القضائـي بالقصاص علـى الرجال الثلاثـة، بينما حُكم على بلقيس وزميلتها بالسـجن عشرين سـنة، والتفريق بينهما ؛ أُودعت زميلتها في (سـجن جدة) أما بلقيس فقد أُودعت (سجن الرياض) لأمر قد قُدِر!

وفي سجن النساء :

- كانـت بلقيـس تتصف بالعدوانية وسـلاطة اللسـان، الكل يتحاشاها، فعاشت منبوذة من الجميع.

كانت إدارة السـجن تنقلها من قسـم لآخر عندما تتشاجر مع النزيلات حتى اسـتقر بها المقام في قسـم (السـريلانكيات) إذ أن هذه الجنسية تميل إلى الوداعة والهدوء.

حدثٌ وراءه حكمة!

- من فضل الله سبحانه أن إدارة التوعية الإسلامية بالسجن قد

وفرت كتب للتعريف بالإسلام للسجينات بجميع اللغات تقريبًا.

وفي يوم ما .... طلبت إحدى السجينات السيرلانكيات النصرانيات من المسؤولة الدينية في السجن كتبًا عن الإسلام بلغتها، وكالعادة تبقى الكتب الدينية مع السجينة يومين أو ثلاثة ثم تُعطى لأخرى وهكذا... لكن هذه السجينة رفضت إعادة الكتب، وبقيت عندها أسبوعًا كاملاً وهي تقرأ وتعيد وكأن كنوز الأرض بين يديها.

جاءت المسؤولة الدينية وطلبت تسليم الكتب، فرفضت للمرة الثانية، فما كان من المسؤولة إلا أن أخذت الكتب منها (بالقوة).

طوال الليل، وبكاء السجينة لا ينقطع...

وبلقيس تُراقب الحدث، وقد عجبت من بكائها وإصرارها على بقاء الكتب عندها، وجال في خاطرها أنه لابد أن وراء هذه الكتب سرًا!.

فَكَمْ للهِ مِنْ لُطْفٍ خَفِي
يَدِقُّ خَفاهُ عَنْ فَهمِ الذَّكيِّ

من يُرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام :

- في الصباح طلبت بلقيس من المسؤولة الدينية كتبًا عن الإسلام بلغتها... قرأت وقرأت وأحست بشعور غريب من الراحة والسعادة، والرغبة القوية في اعتناق الإسلام.

- تلك النفس الهائجة وجدت سكنًا لحيرتها، وريًّا لروحها المقفرة.

وكانت المفاجأة !

- أعلنت بلقيس إسلامها، وغيّرت اسمها القديم إلى هذا الاسم، فرح الجميع لها فرحًا عارمًا.

سبحانه إذا أراد أمرًا هيأ له أسبابه!!

تدبير العليم الحكيم :

لقد قاد بكاء تلك السجينة السريلانكية إلى قراءة بلقيس لكتب التعريف بالإسلام ثم اعتناقه!

وكَمْ للهِ مِنْ تدبيرِ أمرٍ
طَوَتْهُ عن المُشاهدةِ الغيوبُ

حدثٌ لا يستطيع القلم أن يسطّره، ولا اللسان أن يصفه.

رحلة من ظلمة الكفر إلى نور الإسلام، من تَيهٍ إلى أمان، من موتٍ إلى حياة حقيقية وجنة عاجلة، قال تعالى : ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[الأنعام : ١٢٢].

تغيّرت طباع بلقيس من امرأة عدوانية إلى امرأة مسالمة هادئة، فالمسلم كما قال ﷺ : «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَاس مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»(١).

---

(١) رواه أحمد برقم (٧٠٨٦) قال محققوه : إسناده صحيح على شرط الشيخين.

التحقت بلقيس بمدرسة القرآن الكريم، وحفظت (ستة أجزاء) من القرآن الكريم، وحرصت على تعلّم أحكام الدين، ذاقت طعم الحياة الحقيقية، ذاقت طعم السعادة، وصدق الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]، وما أجمل ما قال ابن تيمية: المحبوس من حبس قلبه عن ربّه، والمأسور من أسره هواه[١].

جهود بلقيس في السجن:

• قال ﷺ: «وَاللهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»[٢].

- لما أنقذ الله سبحانه بلقيس من ظلمات الكفر، وقد تجرّعت غصّته، وخاضت وحله؛ أشفقت على غير المسلمات في السجن، فبذلت جهدها في عرض صورة الإسلام وسماحته وعدله ورحمته، إضافة إلى أنها تملكُ أُسلوبًا قويًا مؤثرًا جذّابًا، أسلم على يديها الكثير مما دفع بإدارة السجن أن تقيم لها محاضرة في قاعة السجن لغير المسلمات.. وما إن انتهت من المحاضرة إلا وأعلن الكثير إسلامهن، ودوّت القاعة بالتكبير!.

---

(١) الوابل الصيب، ص٩٦.

(٢) رواه البخاري برقم (٣٧٠١).

تكريم إدارة السجن للمسلمات الجدُد :

- مـنَّ الله عليّ بحضور حفل المسـلمات الجُـدد، منهن من أسـلم على يـد الموّفقة بلقيـس، والآخر على يـد داعية أخرى، عجبتُ من هذه المرأة المسلمة الوديعة كيف كانت عدوانية قبل إسلامها كما ذُكر لي، وكيف أصبحتْ الآن بفضل الله ثم دخولها في هذا الدين العظيم.

عجبتُ من سمتها وهديها وبهاء وجهها.

ولا غرو!

فنور الإيمان يُبدّد ظلمات الكفر، ويجلب الفلاح في الدين والدنيا.

وجاء العفو :

- كان الحكم القضائي على بلقيس - كما أسلفت - عشرين عامًا.

كانت أوائل سنوات سـجنِها جحيمًا لا يُطاق : كفر وضلال، وعدوانية وظلم ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾ [النور : ٤٠].

جـاء العفـو الملكي وشـمل بلقيس مـع بعض السـجينات، فقد أُعطيتْ نصف المحكومية (عشـر سـنوات) لحسن إسلامها وخُلقها، وحفظها ستة أجزاء من القرآن.

وعادت بلقيس إلى بلادها :

- عادت بلقيس إلى بلادها (النيجر) داعية إلى الله، وافتتحت هناك مدرسـة لتحفيظ القـرآن الكريم، سـبحان مقلّب القلوب،

ومُصرّف الأحوال، مدبّر الأمور، يهدي من يشاء بحكمته...

لبثت في السجن بضع سنين؛ أسلمت وأسلم على يديها الكثير، وحفظت ستة أجزاء من القرآن الكريم، وتعلمت الكثير من أحكام الدين؛ قال تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٩].

لقد خرجت بلقيس من بلدها نصرانية مجرمة بجريمة تهريب المخدرات.

وعادت بلقيس إلى بلادها مسلمةً وداعيةً إلى الله!.

وهي رسالة بألّا نيأس من هداية أحد، ولا نقنط من روح الله، فالقلوب بيد الله وحده، قال ﷺ: (إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ)[1].

- وما زالت بلقيس وهي في بلدها على تواصل مع بعض داعيات هذا البلد تستفسر عن بعض أمور الدين أو ما يُشْكِلُ على المسلمات هناك.

اللهم ثبّتنا وإياها على الحق، وكن لها مُعينًا وناصرًا في نشرها لهذا الدين العظيم.

---

(١) رواه الترمذي برقم (٢١٤٠).

٥ - مها السريع

تلميذتي الصالحة

«فضل الرفقة الصالحة»



٥ - مها السريّع

(مها) فتاة في التاسعة عشرة من عمرها، حظيتُ بتدريسها في الصف الثالث الثانوي.

رأيت في سيماها سمت الصالحين، ودأب المتبتلين، حريصة على نوال العلم، مُسارعةً في نوافل الطاعات، تنهض في السحر لتناجي ربها، وتُشمّر في النهار تلاوةً وذكرًا وصيامًا، تمتلك قلبًا سليمًا، وسريرة نقيّة فلا تحمل غِلاً على مسلم - شهد بذلك صويحباتها -.

منزلة الوالدين في الإسلام :

• للوالدين مكانة عظيمة في الإسلام، فقد قرن الله سبحانه حقّهما بحقّه ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء : ٣٦].

وبرّ الوالدين يكون بطاعتهما في غير معصية الله، وقضاء حوائجهما، والتلطّف معهما في القول والفعل.

فمن أسباب التوفيق في الدنيا والآخرة : برُّ الوالدين.

ومن أسباب إجابة الدعاء : برُّ الوالدين، ففي الحديث عن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال : قال ﷺ : (**إِنَّ خَيْرَ التَّابِعِينَ رَجُلٌ يُقَالُ**

لَـهُ أُوَيْـسٌ، وَلَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ، لَوْ أَقْسَـمَ عَلَـى اللهِ لَأَبَرَّهُ، فَمُرُوهُ فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ)[١].

ومـن أسـباب حسـن الخاتمـة: بـرُّ الوالدين، قال سـعيد بن المسيّب: البارُّ بوالديه لا يموت ميتة السوء[٢].

ومـن أسـباب دخول الجنـة برُّ الوالديـن: قـال ﷺ: (**الوالدُ أوسـطُ أبـوابِ الجنَّـةِ**)[٣] أي: أنّ طاعتـه وعدم عقوقـه مؤدٍ إلى دخول الجنة من أوسـط أبوابها، وإذا كان هذا حكم الوالد فحكم الوالدة أقوى.

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: **مَا مِنْ مُسْلِمٍ لَهُ أَبَوَانِ فَيُصْبِحُ وَهُوَ مُحْسِنٌ إِلَيْهِمَا إلا فَتَحَ اللهُ لَهُ بَابَيْنِ مِنَ الْجَنَّةِ**[٤].

وقد كان الأنبياء عليهم السـلام بررة بوالديهم، قال سـبحانه عن يحيـى عليه السلام: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: ١٤]، قـال بعض السلف: «لا تجد أحدًا عاقًّا لوالديه إلاّ وجدته جبارًا شقيًا»[٥].

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٥٤٢).

(٢) تاريـخ ابـن معيـن (٣/ ٢٥٥)، ميتة السـوء: الموت على سـوء الخاتمة، وقيل المراد بميتة السـوء أو مصارع السوء: ما اسـتعاذ منه النبي ﷺ «كالهدم والغرق والحرق».

(٣) رواه الترمذي برقم (١٩٠٠).

(٤) المصنف لابن أبي شيبة (٨/ ٣٥٤).

(٥) تفسير ابن كثير (٣/ ١٢٠).

برُّ مها بوالدتها :

- كانـت مها عظيمة البرّ بوالدتها، وخاصـة بعد وفاة والدها، وتحمّـلُ والدتها أعباء المسـؤولية، وحاجتها إلى من يسـندها في هذه الحياة القصيرة، فقد أصبحت تقوم مقام الأب والأم.

• وهذه رسالة إلى كل ابن وابنة فقدا والدهما واشتدت حاجة أمهما إليهما؛ أن يتحملا عنها بعض المسؤولية، وأن يكونا قريبين منها أكثر وأكثر.

فضل مجالس الذكر :

• إنَّ مـن أفضل ما عمّرت به الأوقـات، وفَنيت فيه الأعمار؛ الاجتماع على ذكر الله، فقد رغّب فيها نبينا محمد ﷺ فقال : «مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا يَذْكُرُونَ اللهَ فِيهِ فيقومون حَتَّى يُقَالَ لَهُمْ: قُومُوا قَدْ غَفَرَ الله لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَبُدِّلَتْ سَيِّئَاتِكُمْ حَسَنَاتٍ»[1].

وقال الحسن : ما اجتمع ملأ على ذكر الله، فيهم عبدٌ من أهل الجنّـة إلاّ شـفَّعه الله فيهـم، وإنَّ أهل الإيمان ليشـفع بعضهم في بعض، وهم عند الله شافعون مُشفَّعُون[2].

في حصة الاحتياط :

دخلـتُ علـى فصل مها، ورغبة في اسـتثمار وقـت الفراغ بما

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي برقم (٦٩٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٤٩).

ينفع؛ قرأتُ على الطالبات من كتاب (تذكرة الإخوان بخاتمة الإنسان) وعرّجت على علامات حسن الخاتمة.

لفت نظري شدة انتباه مها لما أقرأ، ولم يدر بخلدي أنّ مها التي كلها أذنٌ صاغية لما أقوله ستموت بعد أيام على حسن خاتمة ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

حادث مفاجئ:

- وفي يومٍ من أيام الربيع، وكعادة كثير من الناس في هذا الفصل الجميل يخرجون لرؤية سيوله واخضرار أراضيه، وتلوّن أزهاره، ويتنعمون بلطيف أنسامه، ذهبت مها برفقة عائلتها وخالتها للنزهة.

جلست مها في المقعد الخلفي من السيارة بجوار خالتها التي تجلس عند الباب الأيمن، ثم نزلوا بقرب (غدير ماء) لكن مها وخالتها أصرّتا على تغيير المكان لقربه من الشارع العام.

ونزولاً عند رغبتهما ركبت العائلة السيارة (وتبادلت) مها مع خالتها الأماكن لتكون مها عند الباب الأيمن لأمرٍ قد قُدِر!

انطلقت السيارة إلى مكان آخر، وطوال الوقت ومها منشغلة بالذكر، ولا تكاد تشارك أحدًا في الحديث.

مشيناها خُطىً كُتِبتْ علينا
ومَنْ كُتِبتْ لهُ خُطىً مَشاها
ومَنْ كَانتْ مَنِيَّته بِأَرضٍ
فليسَ يموتُ في أرضٍ سِواهَا

وما هي إلا دقائق ...

فإذا بشاحنة كبيرة تصطدم بالسيارة من جهة اليمين للمقعد الخلفي (جهة مها).

أُصيبت مها بنزيف داخلي، نطقت بالشهادة ورفعت أصابعها السبابة اليمنى واليسرى ثم فارقت الحياة.

وهذا من دلائل حسن الخاتمة - ولا نزكي على الله أحدًا - فقد قال ﷺ : «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلامِهِ لا إِلَهَ إِلا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»[1].

صُلّي على مها من الغد بعد صلاة الجمعة..

وذهبتُ لتعزية أهلها :

• التعزية : هي حمل المصاب على الصبر، وليس لها ألفاظ مخصوصة، والأفضل أن يعزّي بالألفاظ التي عزّى بها النبي ﷺ ابنته بقوله : « **إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلٌّ إلى أَجَلٍ مُسَمًّى، فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ**»[2].

---

(١) رواه أبو داود برقم (٣١١٦).
(٢) رواه البخاري (٧٤٤٨).

وقـد ورد في فضل العزاء قولـه ﷺ: «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يُعَزِّي أَخَاهُ بِمُصِيبَةٍ إِلَّا كَسَاهُ اللهُ سُبْحَانَهُ مِنْ حُلَلِ الْكَرَامَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1].

- ذهبتُ لتعزية أهل مها وذكروا لي أمورًا عجيبة تدل على حسن الخاتمة لولا أني تأكدّت منها من عدة أطراف لما سجّلتها هنا، وكلامهم متطابق تمامًا وليس فيه اختلاف..

حسن الخاتمة :

- أُتي بـ(مها) إلى مغسلة الأموات وقد رفعت أصابعها السبابة اليمنى واليسرى تشهد بالوحدانية، وأثناء التغسيل نزف دم من أنفها، تشهد المُغسِّلات طيب رائحته، وبعد تكفينها ارتسمت ابتسامة على ثغرها، فيا لله ما أروعها من خاتمة!

فضل الرفقة الصالحة :

- كان مصلى المدرسة روضًا عامرًا - ولله الحمد - بالدروس العلمية يوميًا في الفسحة (وقت الاستراحة)، وقد كانت مها من عُمَّار المصلى؛ تؤدي صلاة الضحى[2] ثم تجلس في حلقة الدرس.

---

(١) رواه ابن ماجة برقم (١٦٠١).

(٢) فضل صلاة الضحى :

• قال ﷺ مُرغبًا في صلاة الضحى : «صلاة الضحى صلاة الأوابين» صحيح الجامع (٣٨٢٧).

• وقال ﷺ : «يُصبح على كل سُلامى من أحدكم صدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمرٌ بالمعروف

لم تتخلف مها يومًا عن مصلى المدرسة إلا يوم السبت الذي غُيِّبت فيه تحت التراب!

جلستُ في الحلقة مع الطالبات، والحزن قد غشانا لفقد طالبة صالحة من طالبات المصلى، وهذا حال الدنيا!

فيومٌ لنا ويومٌ علينا
ويومٌ نُساءُ ويوم نُسرّ

- تبرعت زميلات مها الصالحات وقريباتها بمبلغ لبناء مسجد لها في خارج المملكة، وأول من بادر بذلك (نورة) طالبة من طالبات المصلى تبرعت بـ(ريالين) مصروفها ذلك اليوم!!

قال ﷺ: «سَبقَ دِرهَمٌ مائةَ ألفِ دِرهَم»[(١)].

بُني لها - بفضل الله - مسجد خارج المملكة يحملُ اسمها، أيادٍ يافعة بذلت، ليبقى الوصال حيًا لا يموت!.

صدقة، ونهيٌ عن المنكر صدقة، ويُجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى» رواه مسلم برقم (٧٢٠).

الحديث يدل على فضل صلاة الضحى، وأن ركعتيها تجزيان عن: (ثلاثمائة وستين صدقة) على عدد مفاصل الجسم (سُلامى)، وإنما قامت الركعتان مقام الإجزاء لأن جميع الأعضاء تتحرك فيها بالقيام والقعود فيكون ذلك شكرها، قال قتادة: ابن آدم! إنما لُينت مفاصلك للعبادة.

• وأقل عدد ركعات صلاة الضحى: ركعتان، ولا حدَّ لأكثرها، وتبدأ بعد شروق الشمس بربع ساعة تقريبًا إلى قبل أذان الظهر بعشر دقائق.

(١) رواه الحاكم برقم (١٥٥٩).

الله أكبر... ما صلّى مصلٍّ، ولا اعتكف عابد، ولا قرأ قارئ القرآن الكريم، ولا ألقى داعية كلمة في هذا المسجد إلا - وبإذن الله- الأجر العظيم يصل إلى مها!.

- هذا فضل وبركة الأخوة الصالحة:
- ذُخرٌ في الحياة: بالتذكير والإعانة على الخير.
- ووفاءٌ بعد الممات: بالدعاء والصدقة والوقف والأضحية والحج والعمرة.

قال ابن القيم: وعذاب القبر قد ينقطع عن المؤمن العاصي إن كان يُعذب بسبب دعاء أو صدقة أو استغفار أو ثواب حج[1].

- ويستمر الوصال في الآخرة: في شفاعة بعضهم لبعض كما قال ﷺ: «حَتَّى إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ النَّارِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ بِأَشَدَّ مُنَاشَدَةً لِلَّهِ فِي اسْتِقْصَاءِ الْحَقِّ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِإِخْوَانِهِمْ الَّذِينَ فِي النَّارِ، يَقُولُونَ: رَبَّنَا كَانُوا يَصُومُونَ مَعَنَا، وَيُصَلُّونَ، وَيَحُجُّونَ. فَيُقَالُ لَهُمْ: أَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ. فَتُحَرَّمُ صُوَرُهُمْ عَلَى النَّارِ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا قَدْ أَخَذَتْ النَّارُ إِلَى نِصْفِ سَاقَيْهِ، وَإِلَى رُكْبَتَيْهِ»[2].

---

(١) كتاب الروح (١/ ٢٧٠).

(٢) رواه مسلم برقم (١٨٣).

قال الحسن: استكثروا من الأصدقاء المؤمنين فإن لهم شفاعة يوم القيامة[1].

شُموخ العطايا:

• إنّ العطايا العديدة الطيبة بين المتآخين المتحابين في الله لا تنقطع...

حـدّث ولا حـرج عـليـك بـذكـرهـم
وأعِـدْ حـديـثـك مـا اسـتـطـعـت وردّد

- في موسم الحج، ذكرتُ قصة (مها) لجمع من الأخوات اللاتي معي في الحملة، فما كان من إحداهن إلا أن تصدقت عنها، واعتمرت أخرى عنها في شهر محرم.

سبحان الله!

لم تكونا من أقاربها ولا من صديقاتها، بل لم ترياها قط!.

والسرُّ في هذا: هو الحبُّ في الله؛ الذي هو من أجلّ أعمال القلوب، ومنزلته عظيمة عند الله، قال ﷺ فيما يرويه عن ربّه: «**وجبتْ محبّتي للمتحابّين فيّ، والمتجالسين فيَّ، والمتزاورين فيَّ، والمتباذلين فيَّ...**»[2].

---

(١) تفسير البغوي (٣/ ٣٩١).

(٢) رواه مالك في الموطأ برقم (٢٧٤٤).

من الموافقات العجيبة :

- ألقيتُ محاضرة على طالبات المرحلة المتوسطة في إحدى المدارس وذكّرتهنّ بتقوى الله وفضل الرفقة الصالحة وتطرّقتُ إلى قصة مها بالتفصيل فتأثّرن بسيرتها العطرة.

وبعد المحاضرة ....

بادرتني بالسلام المرشدة الطلابية، وفي وجهها مسحة حزن، وقالت : لقد نكَأْتِ جراحي!

قلت : ولِمَ ؟

قالت : أنا خالة مها التي كنتُ معها في السيارة، وهذا الجرح - وأشارت إلى ندبة في أعلى جبينها - من آثار الحادث.

قلت : لعل الله سبحانه أراد لمها خيرًا، فكم شخص تَرحّم عليها ودعا لها وتصدّق عنها بل واعتمر لها... وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء...

عطر ذكراها :

- لا زلتُ احتفظ بورقة اختبار مها وكراستها وبحثها القيم عن (سيرة الإمام أحمد) وهو بحث لا منهجي اشتركت فيه (اثنتان وعشرون) طالبة، قمتُ بتصحيح الأبحاث، وأما الجوائز فبعد أن تم احضارها للطالبات المشاركات بعد أسبوعين من وفاة مها، تمّ وضع قيمة شراء هدية مها مع مبلغ بناء المسجد.

أسأل الله أن يجمعنا بمها ووالدينا وذرياتنا وأحبابنا في جنات النعيم.

٦ - نورة الجبرين

(ثمرة الصبر)

«اللّهم أَنْزلني منازل أرضاها في الدُّنيا والآخرة»

٦ - نورة بنت سعد الجبرين

(نـورة) امـرأة كبيرة صالحة، صابرة على مـا أصابها من بلايا وأمراض.

حياتهـا عامـرة بالأحـداث والمفاجـآت، وحافلـة بالدروس والعبر.

حياتها الاجتماعية :

- تزوجـت في شـبابها مـن رجـلٍ (قطـريّ) عقيـم لا يُنجب، وعاشـت معه في مدينة الأحسـاء، وسـكنت عندهـا والدتها التي ابتليت بفراق ابنها الوحيد الذي سـافر لبلدٍ مجاور لطلب الرزق وانقطعـت أخباره سـنينًا عديدة، فكانـت والدتها تلهـج بالدعاء وتُلـحّ على ربها وخاصة يوم الجمعة أن يـردَّ الله عليها ابنها، وأن يكون هو الذي ينزلها في قبرها إذا توفيت....

وبعد سـنين عاد الابـن لـلأم الملتاعة ففرحت فرحًا شـديدًا بعودتـه بعـد فـراقٍ طويل، ومكـث عندهـا ثمانية عشـر يومًا ثم تُوفيّت، فكان هو الذي أنزلها في قبرها!

وبعد وفاة والدة نورة التي كانت أُنسها وسلواها، طلبت نورة من زوجهـا الفراق لظروف خاصة، وانتقلت إلى مدينة الرياض،

وتزوّجت وأنجبت ثلاثة أبناء توفوا جميعًا عند الولادة، وبعد فترة من الزمن توفي زوجها الثاني.

سكنها وحدها :

- عاشت نورة في بيت وحدها تصارع أعباء الحياة بثباتٍ وصبر.
- حدثتني عن معاناتها في ذلك البيت : أنّ إحدى غرفه بابها صغير - كعادة بعض البيوت القديمة آنذاك - فكان لابدّ أنْ أحني رأسي عند الدخول، وأحيانًا أريد الدخول مسرعة لهذه الغرفة، فتضربني حافة الباب على رأسي، كلّما ضربتني، تألّمتُ، وتضرّعتُ ودعوتُ الله سبحانه بهذه الدعوة : اللهم أنزلني منازل أرضاها في الدنيا والآخرة، اللهم أنزلني منازل أرضاها في الدنيا والآخرة.

اصبر قليلاً فبعدَ العُسرِ تيسيرُ
وكُلُّ أمرٍ له وقتٌ وتدبيرُ
وللمهيمنِ في حالاتِنا نظَرٌ
وفوقَ تدبيرنا للهِ تقديرُ

فضل الدعاء :

- الدعاء من أفضل العبادات، قال ﷺ : «**الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ**»[1]،

---

(١) رواه أبو داود برقم (١٤٧٩).

فيه تَضرّع إلى الله وافتقارٌ إليه وتذلُّل بين يديه، والله سبحانه يبتلي عباده بعوارض تدفعهم إلى بابه يستغيثون به....

فسبحان من أخرج الدعاء بالبلاء!.

قال أبو الدرداء: أكثروا الدعاء، فإنّ من أكثر قرع الباب يوشك أن يُفتح له[1].

وملكت نورة بيتًا واسعًا:

- يسّر الله سبحانه لنورة أن تملك بيتًا وأوصتْ بأن يكون وقفًا لله تعالى في أعمال الخير بعد وفاتها...

هذه ثمرة دعوتها: «اللّهم أنزلني منازل أرضاها في الدنيا الآخرة، اللهم أنزلني منازل أرضاها في الدنيا والآخرة»..

وإذا اُبتُلِيتَ بمحنةٍ لا تَبْتَئِسْ
فلعلَّ تلكَ النُونُ تَسبقُ حَاءَهَا

رؤيا عجيبة:

- أخبرتني برؤيا رأتها؛ قالت: «رأيتُ في المنام أني في أرضٍ خضراء واسعة، ورأيت فيها رجلاً طويلاً، قلت: من أنت؟ قال: أنا موسى، قلت: عليك السلام».

أذكر هذه الرؤيا التي أخبرتني بها - ولا أزكيّها على الله -

---

(١) شعب الإيمان برقم (١١٤٣).

ولعلّها من عاجل بشرى المؤمن كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [يونس: ٦٣ - ٦٤].

فُسِّرت البشرى في الحياة الدنيا: بالرؤيا الصالحة يراها الرجل أو تُرى له، وفُسِّرت أيضًا بمحبة الناس له والثناء عليه، وكأن هذه الرؤيا السارة تنعش قلبها المكلوم وتُزهر معه حياتها المدلهمة!!

الصبر نعم الزاد:

- كَبُر سنّ نورة ورقّ عظمها وتكالبت عليها الأمراض فاضطرت إلى الإقامة عند بعض أقاربها، وكانت محتسبة صابرة على ما أصابها، شاكرة الله على نعمه، موقنة بأن البلايا والأمراض كفارة لذنوب المؤمن ورفعة لدرجاته كما قال ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى إِلَّا حَاتَّ اللهُ عَنْهُ خَطَايَاهُ كَمَا تَحَاتُّ وَرَقُ الشَّجَرِ»[1]، موقنة بأنَّ الإنسان في هذه الحياة لا يخلو من الابتلاءات كما قال الشاعر:

ثمانيةٌ تجري على النّاسِ كُلِّهم
ولابدّ للإنسان يلقى الثمانيا
سرورٌ وحزنٌ واجتماعٌ وفرقةٌ
وعسرٌ ويسرٌ ثم سقمٌ وعافية

(١) رواه البخاري برقم (٥٦٤٧)، ومسلم برقم (٢٥٧١).

وسمةُ الصالحين الوَرَع:

- آثَرت نورة في السنة الأخيرة من حياتها بعد أن تحسّنت صحتها عمّا كانت عليه أن تعيش وحدها، تتحدّى وحشة الوحدة بأنس الخلوة بالله، فسكنت بجوار قريباتها من بنات العم والخال، فكنَّ يتعاهدنها بالزيارة لمؤانستها وإدخال السرور عليها، محتسبات أجر صلة الرحم، فقد قال ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأُ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»(١).

وقيَّض الله لها إحدى قريباتها أن تتعاهدها بإرسال وجبة الغداء يوميًا، إلاّ انّ ورع نورة وتقواها أبى عليها إلا أن تطلب من هذه القريبة أن تستأذن زوجها في إرسال الغداء!

عجبت القريبة من هذا الطلب لِعِلمِها أنّ زوجها - وهو أيضًا من أقارب نورة - لا يُمانع، بل يفرح بأن تأكل نورة الكبيرة الضعيفة مما يأكله أهله، ونزولاً عند رغبتها استأذنت زوجها الذي لم يتردد في الموافقة.

الله أكبر!

إنّه الورع والخوف من الله أن لا يدخل بطنها إلاّ ما كان حلالاً طيبًا، فأكل الحلال يعين على العمل الصالح، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١].

---

(١) رواه البخاري برقم (٥٩٨٥).

ومن كانـت طعمته حـلالاً وفقت جوارحـه للطاعات، ومن كانت طعمته حرامًا عصت جوارحه شاء أم أبى، علم أم لم يعلم.

- إنّ في ورع نورة درسًا وعبرة عظيمة لمن حَذِقَ!، فليتق الله من يأكل أموال الناس بالباطل ولا يُبالي، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

أعجوبة قراءتها للقرآن على كبر :

- كانت نورة لا تعرف القراءة والكتابة، وتتمنى أن تقرأ القرآن الكريم.

كانت تحبّه حبًا جمًا، وتحمله بين يديها وتضمه على صدرها، وإذا سألها أحد : لِمَ تحملين القرآن وأنت لا تقرئين فيه؟

فتقول : أحبّه!

● قال ابن مسعود : من أحبّ أن يعلم أنّه يحب الله فلينظر إلى القرآن، فإن كان يحبُّ القرآن فإنّه يحبّ الله ورسوله[1].

- وفي سـن الخمسين اسـتطاعت نورة - بفضل الله - أن تقرأ حروف القرآن الكريم، ساندتها رغبتها السامية وهمتها الشامخة؛ إذ طلبـت من أحد صغـار أقاربهـا أن يعلّمها الحـروف الهجائية مقابـل (ريـال) لـكل درس ولكنّها لم تتقـن الحـروف جيدًا... تضّرعـت إلى ربها وافتقـرت إليه بدموع الملحيـن الصادقين أن

---

(١) مختصر قيام الليل ص٧٦.

يبلغها أمنيتها، ثم تنظر لآيات المصحف تعتصر ذاكرتها لعلها تميز الحروف لتقرأ.. تحاول ولم تيأس، بدأت بتذكر الحروف.. وفي مشقة ومجاهدة بدأت في التهجي مع التعتعة وسماع القرآن مسجّلاً وعبر إذاعة القرآن الكريم.

لعلّ الله عَلِمَ صدقها ورغبتها في قراءة كتابه؛ ففتح عليها وأعانها ويسّر لها مطلبها.

فرحت واستبشرت وعكفت على قراءة القرآن الكريم، وحفظت بعض السور كسورة الكهف ويس والأجزاء الأخيرة من القرآن، وكان أنيسها وجليسها وسلوتها.

وصدق نبينا ﷺ: «**إن تَصْدُقِ الله يَصْدُقْك**»[1].

---

(١) سنن النسائي برقم (٢٠٩١)، وتمام الحديث: عن شداد بن الهاد، أنّ رجلًا من الأعراب جاء النبي ﷺ فآمن به واتبعه ثم قال: أهُاجر معك.؛ فأوصى به النبي ﷺ بعض أصحابه، فلما كانت غزوة غَنِم النبي ﷺ سبيًا فقَسَم وقَسَم له، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوه إليه، فقال: ما هذا؟ قالوا: قِسم قَسَمه لك النبي ﷺ فأخذه فجاء به النبي ﷺ. فقال: ما هذا؟ قال: (قسمته لك)، قال: ما على هذا اتبعتُك، ولكن اتبعتك على أن أُرمى هاهنا - وأشار إلى حلقه بسهم - فأموت فأدخل الجنة، فقال ﷺ: (إن تصدق الله يصدقك) فلبثوا قليلا، ثم نهضوا في قتال العدو، فأُتي به النبي ﷺ يُحمل قد أصابه سهم حيث أشار، فقال النبي ﷺ: (أهو هو؟) قالوا: نعم، قال: (صدق الله فصدقه) ثم كفنه النبي ﷺ في جبة النبي ﷺ ثم قدّمه فصلى عليه، فكان فيما ظهر من صلاته: (اللهم هذا عبدك خرج مهاجرًا في سبيلك فقتل شهيدًا أنا شهيد عليه).

دعاء عجيب :

- كنت أزورها مع أهل بيتي بين الحين والآخر وأستمتع بعبق حديثها، وذكرياتها عن الماضي وما فيه من دروس وعبر.

في إحدى الزيارات ... أسرّت إلينا بدعوة غريبة دعت الله بها وهي : أن لا تموت إلا وقد صلّت صلاة العشاء والوتر وتناولت طعام العشاء!

قلنا : أما صلاة العشاء والوتر : فدعوة طيبة، ولكن تناولك لطعام العشاء قبل الموت؟!

قالت : يعني أني لم أحتج إلى أحد يعتني بي (أموت بصحة وعافية).

وكانت وفاتها كما دعت :

- لم يمر على هذا الموقف إلاّ أيامٌ معدودات.

ففي ليلة الأحد من الشهر السادس، عام ١٤١٢ هـ، زارها أحد أقاربها، وكانت في صحة وعافية.

صلّتْ صلاة العشاء والوتر وتناولتْ طعام العشاء معه.، وتجاذبا أطراف الحديث ثم أحست بخمول مفاجئ، فقالت له : هذا هو الحقّ (تعني الموت)، ثم نطقت بالشهادة مرتين، وفارقت الحياة!.

قال ابن القيم : «من كان مشغولاً بالله وبذكره ومحبته في حال

حياته وجد ذاك أحوج ما هو إليه عند خروج روحه إلى الله، ومن كان مشغولاً بغيره في حال حياته وصحته فيتعسّر عليه اشتغاله بالله وحضوره معه عند موته مالم تدركه عناية من ربه»[1].

استعدادها للموت :

- كانت - رحمها الله - قد جهزت منذ عشرين سنة (الكفن، والكافور، والسدر)[2]، وقد أوصت أن تُغسّل في بيتها من قِبَل قريباتها.

وأثناء الغسيل...

انبهرت القريبات المُغسِّلات من النور والبهاء الذي في وجهها!.

وأجمع كل من رآها من الأقارب ممن قدموا لوداعها على هذا النور.

ورأيت النور والبهاء في وجهها :

- ولما بلغني خبر هذا النور أسرعت لوداعها، ولرؤية النور الذي أشيع عنها.

دخلت المجلس، فإذا هي مسجّاة على النعش.

---

(١) طريق الهجرتين، ص٣٩٩.

(٢) ليست هذه سنة، فالسلف كانوا يستعدون للآخرة بالعمل وليس بالكفن، لكنه اجتهاد منها - رحمها الله -.

فتحـتُ الكفـن، ورأيت وجههـا، هالني ما رأيت، أجهشـتُ بالبكاء.

فـوالله الـذي لا إله إلا هو رأت عيناي نـورًا وبهاءً أكثر مما قد تخيلت!.

أغلقت الكفن، ثم كشفته مرة أخرى.

إشـراق وجههـا والنور الذي رأيت لا أسـتطيع أن أشـبهه إلا بالورقة البيضاء، أو نور (النجفة) البيضاء.

لن أنسى هذا الوجه الصبيح ما حييت!.

• قـال ﷺ: «**كَلِمَـةٌ لا يَقُولُهَـا عَبْدٌ عِنْدَ مَوْتِهِ إِلَّا فَـرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَتَهُ وَأَشْرَقَ لَوْنُهُ**»، قال عمر رضي الله عنه: هي كلمة أمر الله بها **(لا إله إلا الله)**[1].

أسـأل الله أن يجمعنا بهـا في جنته، وأن يكـون آخر كلامنا من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله.

(١) رواه الحاكم برقم (١٣٣٧)، وقال: حديث صحيح على شـرط الشـيخين ولم يخرجاه.

هيا الجبرين

«أُعجوبة الزمان»

قال ﷺ: «احفَظِ الله يَحْفَظْكَ»[1].

---

(١) رواه الترمذي برقم (٢٥١٦).



٧ - هيا بنت سعد الجبرين[*]

(هيا) امرأة تحمل صفات نادرة قلَّ أن تجدها عند النساء.

ذات دين وصلاح وتُقى وعفة لسان....

القرآن لها أنيس، والصبر لها جليس.

حياتها الاجتماعية :

تزوجت مرتين، ولم تنجب ثم بعد وفاة زوجها الثاني كانت تنتقل بين بيوت أقاربها.

برنامجها اليومي كما رأيته :

- كانت تستيقظ في الصباح قرابة الساعة الثامنة والنصف تتناول طعام الإفطار ثم تصلي صلاة الضحى ثم تقرأ القرآن الكريم حتى أذان الظهر.
- بعد صلاة الظهر تتناول طعام الغداء وربما أخذت قسطًا من نومة القيلولة.
- وبعد صلاة العصر تقرأ وردًا من القرآن الكريم لا تتركه أبدًا حتى لو ناولناها كوبًا من الشاي لا تشربه حتى تتم وردها المعتاد.

(*) وهي أخت لنورة التي سبق ذكر سيرتها.

- بعـد ذلك تجلس مع مَنْ يأتيها، ولربما خرجنا لزيارة أو نزهة فترافقنا، وبين الحين والآخر تحيك ملابسًا للفقراء.

إنها تقـدّم لآخرتها ولم تنـس نصيبها مـن الدنيا عمـلاً بقوله تعالـى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [القصص: ٧٧].

عفّة لسانها:

• قال ﷺ: «**مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ**»(١).

• قـال الفضيـل: أشـدُّ الوَرَع في اللسـان(٢)، وقـال يونس بن عبيـد: خصلتان إذا صلحتا من العبد صلح ما سـواهما من أمره: صلاته ولسانه(٣).

- كانـت هيـا تنتقل بين بيـوت الأقارب، بعد وفـاة زوجها - كما أسـلفت - فلا تفشي لأحد من الأقارب سرًا أو تذكر مشكلة حصلت في البيت الذي قدمت منه، أقصى ما تقول لي عند قدومها من أحد الأقارب إلى بيتي: يسلمون عليك آل فلان.

وهذا والله ما تُغبط عليه: عفة اللسـان وحفظ أسرار البيوت،

---

(١) رواه البخاري برقم (٣١٠٩).

(٢) سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٣٤).

(٣) حلية الأولياء (٣/ ٢٠)

قال ابن الجوزي: «من سرح لسانه في أعراض المسلمين واتبع عوراتهم أمسك الله لسانه عن الشهادة عند الموت»[1].

- كانت هيا لا تغتاب أحدًا، ولا تتحدث كثيرًا في المجالس، وكأنها أخذت بوصية العابد أيوب السختياني عندما قال له رجل: أوصني، قال: أقِلّ الكلام[2].

- ولا تراها تسأل عمّا لا يعنيها، وهذا من حسن إسلامها كما قال ﷺ: «مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَالاَ يَعْنِيهِ»[3]، بل إذا سمعت في بعض المجالس تخمينًا من بعض النساء: فلانة كأنها حامل، آل فلان كأن عندهم زواج، ردت عليهم بالعبارة العامية: (بيرخص العلم)[*].

حالها مع القرآن الكريم:

- حدّثتني أنها كانت تقرأ يوميًا في شهر رمضان (خمسة عشر جزءًا) من القرآن الكريم، فتختم كل يومين أخذت على هذا زمنًا، ثم أحست بالتعب والصداع في رأسها - خاصة أن قراءتها بطيئة - فخففت على نفسها القراءة إلى (عشرة أجزاء) يوميًا، فتختم كل ثلاثة أيام.

---

(١) بحر الدموع، ص٢٠.
(٢) حلية الأولياء (٣/ ٧).
(٣) رواه الترمذي برقم (٢٣١٧).
(*) يعني سيُعرف الأمر ويُشتهر بعد حين، فلا حاجة إلى تقصّي الخبر.

- ولكثرة تلاوتها للقرآن الكريم في شهر رمضان وغيره: كانت تسرد علينا أسماء سور القرآن مرتبة من سورة البقرة إلى سورة الناس والعكس أيضًا، ولا تخطئ في اسم سورة أو تقدم سورة على أخرى!، وهذا محض توفيق وفضل من الله سبحانه، فقراءة كتابه فضل منه سبحانه، فمن اعتادها وألفها أعانه الله ويسّر له ذلك، كما قال ابن القيم: لا يزال العبد يعاني الطاعة ويألفها ويحبّها ويؤثرها حتى يرسل الله سبحانه برحمته عليه الملائكة تؤزّه إليها أزًّا، ولا يزال العبد يألف المعصية ويحبّها ويؤثرها حتى يرسل الله عليه الشياطين فتؤزّه إليها أزًّا[1].

الصدقة من عمل يدها:

• الصدقة عبادة جليلة كما قال ﷺ: «**وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ**»[2]، أي برهان ودليل على صدق إيمان صاحبها.

• والكسب من عمل اليد شأنه عظيم كما قال ﷺ لما سُئل: أي الكسب أطيب؟ قال «**عَمَلُ الرَّجُلِ بِيَدِهِ، وَكُلُّ بَيْعٍ مَبْرُورٍ**»[3]، وقد كانت حفصة رضي الله عنها مع علو شأنها تعمل بيدها وتتصدق من كسبها.

---

(١) الجواب الكافي، ص٥٦.

(٢) رواه مسلم برقم (٢٢٣).

(٣) رواه الحاكم برقم (٢٢٠٤)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

-كانت هيا تخيط الملابس والمفارش وتصنع نوع من الطيب (البخور) وكحل الأثمد وتطحن أوراق الحناء والسدر وتبيعه على الأقارب والمعارف سنوات عديدة، كانت حصيلة عمل يدها شراء منزل في غرب الرياض مكون من ثلاثة أدوار جعلته وقفًا لله تعالى في أعمال الخير.

• وهذه رسالة لمن أنعم الله عليه بالمال؛ بشراء أوقاف له يبقى نفعها وأجرها المستمر في حياته وبعد مماته، وله في صحابة نبينا ﷺ أسوة، قال محمد بن زرارة: ما أعلم أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل بدر من المهاجرين والأنصار إلا وقد وقف من ماله حبسًا لا يُشترى ولا يُورّث ولا يُوهب حتى يرث الله الأرض ومن عليها[1].

حياكة الملابس والتصدّق بها:

عُرف الإمام المحدّث القاضي أبو عبدالله محمد المرزوي: بالخيّاط، لأنه كان يخيط للأيتام والمساكين حسِبَة، كان قاضيًا في النهار، وإذا جاء الليل تفرغ لخياطة ملابسهم ويعدّها صدقة[2].

- طلبت هيا من خيّاط نسائي في زاوية بيتها - في حياة زوجها - أن يعطيها ما يتبقى من أقمشة فائضة عنده لتخيطها ملابس للصغيرات الفقيرات.

---

(١) أحكام الأوقاف للخصاف، ص٦.

(٢) سير أعلام النبلاء (١٤/ ٥٦٥).

بل أحيانًا تنقض (أكياس الدقيق) وتخيطها من جديد ثيابًا للرجال.

فإذا انتهت من خياطة العدد الكبير من ملابس الصغيرات وثياب الرجال تصدّقت به على الفقراء في خارج البلاد.

لا تَحْقِرَنَّ من المعروفِ أصغرهُ
أَحسِنْ فعاقبةُ الإحسانِ حُسْنَاهُ

مرضها :

- قدّر الله أن تُصاب هيا بجلطة في الدماغ جهة اليمين، فتسبب ذلك بالشلل الكامل في جسدها، وأثّر ذلك على لسانها فلم يعُد أحد يعرف ما تقول، ولكن بفضل الله ثم العلاج الطبيعي تحسنت حالتها، فأصبحت تحرك يدها وقدمها اليسرى...

وثمت المفاجأة!

انطلق لسان المرأة التقيّة بكلمة التوحيد (لا إله إلا الله)؛ فكانت تصلي وتذكر الله وتدعو بـ(لا إله إلا الله)، حتى حديثها مع الناس عندما تجيب أحدًا نفيًا أو إثباتًا تهزُّ رأسها بـ(لا إله إلاّ الله)، وهكذا الحال معها.

فكلُّ كلامها بكلمة التوحيد، وبقيت على ذلك عشر سنوات.

تعظيمها للصلاة :

• قـال ﷺ : «وَالصَّلَاةُ نُورٌ»[1]، قال الشـيخ محمد بن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «الصلاة نور للعبد في وجهه وفي قلبه وفي قبره وفي حشره، ولهذا تجد أكثر الناس نورًا في الوجوه أكثرهم صلاة وأخشـعهم فيها لله»[2].

– كان قلب هيا معلقًا بالصلاة، ما إن تسمع الأذان إلا وتتيمّم بالتراب القريب منها.

– تكبر تكبيرة الإحرام بيدها اليسرى ثم تشرع في قراءة سورة الفاتحة : لا إله إلا الله، لا إله إلا الله، ثم تخفض للركوع قائلة : لا إلـه إلا الله، ثم ترفع من الركوع قائلة : لا إله إلا الله، وهكذا حتى تتم صلاتها.

– وبعد السلام : تقرأ أذكار الصلاة تعقد أصابع يدها اليسرى: لا إله إلا الله، لا إله إلا الله...

– ومرضـت يومًـا : فرأيتها ترفع يدها اليسـرى وتدعو ولكن بـ(لا إله إلا الله).

والله سبحانه عالم السر والعلن، يعلم ما تسأله...

– ولما علمت بوفاة العلامة الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن بن

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٢٣).

(٢) شرح رياض الصالحين (١/ ١٩٠).

جبرين - رَحِمَهُ اللهُ - وهو من أبناء عمومتها؛ رفعت يدها بالدعاء له، ولكن لا تسمع منها إلا (لا إله إلا الله).

تعجّب كل من رآها :

- إنّ في حال هيا لعبرة لكل من رآها ، كيف أنّ هذا اللسان الذي يلهج بذكر الله في الصحة والعافية يعود مخبتًا لله حال الضعف والعجز!

- زارتها زميلتي (مها الدَّبل)(*) وسلّمت عليها وسألتها عن حالها، فكانت لا ترد عليها إلا بـ لا إله إلا الله، دهشت مها ، قلت: يا مها : هذا لا يأتي من فراغ، إنما بعد جدّ واجتهاد، فاغرورقت عينا مها بالدموع!.

- وزارتها امرأة من المعارف لأول مرة، فلما رأتها لا تتحدث إلا بـ لا إله إلا الله، قالت : هنيئًا لها! إذا جاءها ملك الموت فليس على لسانها إلاّ (لا إله إلا الله)....

- كنتُ أسمع قصصًا في المجالس أن هناك من يجري على لسانه ذكر الله فقط، لكني لم أكن أتخيل أني يومًا ما سأقابل وأجتمع وأُجالس من لا ينطق إلا بـ(لا إله إلا الله) أفضل كلمة في الوجود كما قال ﷺ : «أَفْضَلُ الذِّكْرِ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»(1).

(*) ذكرت قصتها ، ص ٦٣ .

(١) رواه الترمذي برقم (٣٣٨٣).

وقيَض الله من يعتمر عنها :

• قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم: ٩٦] أي محبة في قلوب الصالحين.

- كان من فضل الله على هيا بعد إصابتها بالمرض، أن قيّض لها مَنْ اعتمر عنها وهي (عاملة منزلية) عندي، بلا طلب من قِبَلي، لما رأتْ من عجزها عن ذلك، والله سبحانه يُسخّر مَنْ يشاء لمَنْ يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وسبحان من جعل حسن الخُلق سببًا لدعاء الناس لصاحبه، وإهدائهم القُرب الصالحة في حياتهم وبعد مماتهم.

إنّ الحياةَ مَزارعُ
فازْرعْ بها مَا شِئْتَ تَحْصُد
والناسُ لا يَبقَى سِوَى
آثارِهِمْ والعينُ تفقد

الخاتمة الحسنة :

- مرضت هيا ونُقلت إلى المستشفى ، وأقامت فيها أيامًا قلائل.

اشتدّ بها الألم وخارت قواها وضعف حالها وقَرُب خروج الروح..

فما تظنون أنها ستقول عند الموت، وقد مكثت عشر سنوات وكلمة التوحيد تجري على لسانها؟!

في هذه اللحظات العصيبة رفعت هيا إصبع يدها اليسرى ونطقت بكلمة الشهادة (لا إله إلا الله) ثم كررتها وكررتها حتى لا يكاد يُسمع منها إلا حروف تُتَمْتِم بها، ثم خرجت روحها عصر يوم الجمعة الموافق: ٢٤/ ١٠/ ١٤٣٤هـ.

وما الدُّنيا بباقيةٍ لحيٍّ
وَمَا حَيٌّ على الدُّنيا بِبَاقِ

- توفيت بعد أن وفقها الله لصيام شهر رمضان وأتبعته بستٍ من شوال، عن عمر يناهز الثماني والثمانين سنة، أمضتها في طاعة وصلاح... حفظت جوارحها في رخائها، فحفظها الله عند موتها، وأحسن خاتمتها، وهذا مصداق ما أخبرنا به - ﷺ -: «**احفَظِ الله يَحْفَظْكَ**»[1].

وفي مجلس العزاء:

- كثر الثناء عليها وسؤال الله المغفرة والرحمة لها، والناس شهود الله في أرضه.

ذكرت بعض الحاضرات من قريباتها أنها كانت تدرسهنّ

---

(١) سبق تخريجه.

القرآن الكريم في فترة العدّة (الحداد) على زوجها الأول؛ بعضهن يأتين في وقت الضحى وأخريات في العصر.

فانظر - رعاك الله - إلى اغتنام الأوقات والأعمار في تعليم كتاب الله، قال - ﷺ - مرغبًا في تعليم الناس القرآن الكريم: «مَنْ عَلَّمَ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ عَز وجل كَانَ لَهُ ثَوَابُهَا مَا تُلِيَتْ»(١).

وانظر - رعاك الله - إلى النفس التوّاقة لمعالي الأمور ونفع الخلق.

- رحلت هيا ولم يرحل أثرها الحسن وعلمها النافع وذكرها الطيب، وصدق من قال:

وكُنْ امرءًا إنْ أَتَوْا بَعدهُ
يقولونَ مرَّ وهذَا الأثرُ

- كان من بين المعزّين رجلٌ وقورٌ في الخمسين من عمره؛ عرّف بنفسه وأنها زوجة عمه (الزوج الأول)، وأن والدته توفيت وعمرهُ سنة واحدة، فقام والده وسلّمه لامرأة عمّه هيا لترعاه بعد وفاة والدته.

يقول ممتنًّا لها: لم يُسلمني والدي لعمّة ولا لخالة، إنما للمرأة التي سَبَر دينها وأخلاقها، سلمني لامرأة عمّي هيا فربّتني أحسن تربية، ولما كبرتُ عدتُ إلى بيت والدي.

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني برقم (١٣٣٥).

- ولـم نعلم قط بأنهـا ربّت صغيرًا في بيتها إلا في وقت العزاء، ولعلهـا أرادت أن يكون هذا العمل خبيئة لها عند ربها أو لأنها لا تحبُّ الحديث فيما لا يعنينا أمره - والعلم عند الله -.

- إنّ في سـيرة هيـا لعـبرة وعظة، وذكـرى لمـن كان له قلب فوعى.

وكـانـتْ في حَـيـاتِـكَ لـي عِـظـاتٌ
وأنـــتَ الـيــومَ أوعـــظُ مـنـكَ حيًّـا

أسـأل الله أن يجمعنا بها ووالدينا وذريّاتنـا وأحبابنا في جنّات النّعيم.

٨ - نورة اللّحيد

«أخلاق الكبار»

من دعاء النبي ﷺ :

« **اللَّهُمَّ اهْدِنِي لأَحْسَنِ الأَخْلاقِ ، فَإِنَّهُ لا يَهْدِي لأَحْسَنِهَا إلا أَنْتَ**»[(١)].

---

(١) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا، رقم الحديث (٩).

٨ - نورة اللحيد(*)

حسن الخلق من الإيمان، وصاحبه ينال مرتبة عالية كما قال - ﷺ - : «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ»[١]، وكان من دعاء النبي - ﷺ -: «واسْلُلْ سَخِيمَةَ قلبي»[٢].

• عرّفه ابن المبارك : هو بسط الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى[٣].

وعرّفه آخر : أن تأتي الناس بمثل ما تحب أن يأتوك.

في هذا الزمان قلّ أن تجد من يتخلق بالخلق الحسن في سرّائه وضرّائه، وسائر أحواله مع الأقارب والأباعد حتى الممات.

من نماذجه الشامخة: نورة اللّحيد (أم صالح القاسم)، يشهد لها الجميع بحسن الخلق، ودماثة الطباع، وصفاء السريرة، وخدمة الناس.

(*) قرأت سيرتها العطرة على ابنتها الكبرى (أم تركي) فزوّدتني ببعض الإضافات، شكر الله سعيها.

(١) رواه أبو داود برقم (٤٧٩٨).

(٢) رواه الترمذي برقم (٣٥٥١)، والسخيمة : الحقد والغل، والسُخام : سواد القدر.

(٣) جامع العلوم والحكم لابن رجب (١/ ٤٥٧).

حياتها الاجتماعية :

- تزوّجها عمّي وعاشت مع جدّتي في المزرعة أكثر من ثلاثين سنة، فكانت نِعم الزوجة، ونِعم زوجة الابن لأم زوجها، فلم تسمع منها جدّتي كلمة تسيئها ، أو فعلاً يضيرها، لا تتناول وجبات الطعام إلا معها.... وهكذا المعدن الطيب لا يغيّره طول السنين!.

خدمتها للضيوف :

- كانت المزرعة عامرة بالضيوف طوال العام يأتون للسلام على جدّتي، فما نرى إلاّ ابتسامتها لا تفارق محيّاها، تخدم الجميع من غير تأفّف ولا تذمّر؛ فالأعياد والاجتماعات العائلية والزيارات اليومية المتكررة عندها، ترحب بالزوّار وتُكرّمهم، مضيافة سمحة، تسعد بخدمتهم، وتفرح بمجيئهم.

- وأذكر أن هناك من الأحفاد من يقضي الإجازة الصيفية في المزرعة عند جدّتي، وكانت تقوم بخدمتهم وغسيل ملابسهم!.

وعلى الرغم مما يصيبها من التعب وكثرة المشاغل في النهار فقد كانت صاحبة قيام ليل، بل وتقوم للصلاة من تلقاء نفسها (بدون منبّه).

انتقالها للعيش في الرياض :

- وفي السنوات الأخيرة انتقلت إلى العيش مع أبنائها في

الريـاض، فخفّـت عليها المسـؤولية فتفرغـت لصيـام النوافل، وحفظ القرآن الكريم....

- وللجيـرة حق ... لمّا أقامت في الرياض، كانت السـبّاقة في إقامـة دورية اجتماع للجيران؛ يتعرّف بعضهم على بعض ويأنس بعضهم ببعض، ولم ينسوا لها هذه المبادرة.

الذكرى الطيبة :

• قال سـعيد بن العاص : إنَّ المكارم لو كانت سـهلة يسـيرة لسـابقكم إليهـا اللئام، ولكنها مُـرَّة لا يصبر عليهـا إلا من عرف فضلها ورجا ثوابها[1].

- لا يذكـر أحد مـن أقارب أمّ صالح أو معارفها أنها أسـاءت إليه بقول أو فعل.

وإن سـمعت إسـاءة من البعض قابلتها بالصبر والاحتساب، ولا تخـبر بذلك أحدًا، عاملـةً بقوله تعالى: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى : ٤٣].

- أحبَّها الجميع لسـيرتها العطرة وكرم أخلاقها، بل أصبحت مضـرِب مثـل عند البعـض إذا أرادوا أن يصفوا فلانـة من الناس ذات خُلُق حسن ووجه صَبُوح قالوا : مثل أمّ صالح.

---

(١) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا برقم (٥٩).

وإذا رُزِقـــتَ خَـلِـيـقـةً مـحـمـودةً
فـقـد اصـطـفـاكَ مُـقَـسِّـــمُ الأرزاقِ
فــالــنَّــاسُ هــذا حــظَّــهُ مــالٌ وذا
عِــلْــمٌ وذاكَ مــكـــارمُ الأخـــلاقِ

الفأل عبادة :

• الفأل عبادة يحبُّها نبينا ﷺ : «**وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ**»[1].

الفأل حسن ظنّ بالله، دافع للعمل، وتقوية العزم، وباعث للأمل والفرح والاستبشار.

ففي الحياة هموم وأثقال، إذا مُزجت بالتفاؤل انفتحت أبواب الأمل وأشرق نور الحياة.

- كانت أمّ صالح تحمل دومًا روح التفاؤل، ليس في قاموس حياتها كلمة (صعب) بل تُؤَمِّل الخير من الله دائمًا بعباراتها الجميلة : ييسر الله، بيعين الله، بيوفق الله....

لسان حالها كما قال الشاعر :

إذا ضـيَّـقـت أمـــرًا ضـــاقَ جِـــدًّا
وإن هـــوَّنـــتَ مـــا قـــد عـــزَّ هـــانـــا
فـلا تـهـلِـكْ بـشـيءٍ فـــاتَ حُـزنًـا
فـكَـــمْ أمـــرٍ تـصـعَّـب ثـــمّ لانـــا

---

(١) رواه البخاري برقم (٥٧٧٦).

ردُّ الجميل من شيم الكرام:

• من حسن أخلاق المسلم حفظ المعروف وردّ الجميل ومقابلة الإحسان بالإحسان، فقد قال ﷺ: «**لا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لا يَشْكُرُ النَّاسَ**»[1].

- كانت أمّ صالح تحمل أخلاق الكبار، تحث زوجها على الإحسان لأهله والوقوف إلى جانبهم، وكانت تذكر إحسان إخوان زوجها إليها عندما أصيبت بوعكة صحيّة، وتُذكّر أبناءها بهذا الموقف الجميل منهم وتُكثر من الدعاء لهم، ولم تنس فضلهم عليها.

ولسان حالها يقول:

إنّي امرؤٌ فيّ الوفاءُ سَجِيَّةٌ
وفِعَال كُلِّ مُهذَّبٍ مِفْضَال

• أمّا نكران الجميل فإنَّه طبع اللئام الذين لا يرعون للوفاء ذمة، فإذا ما أحسنتَ إليهم مرارًا وأخطأت في حقهم مرة؛ نسوا فضلك وتنكّروا لك وربما نصبوا لك العداء، وهذا الضرب من الناس كثير في هذا الزمان، والله المستعان.!

---

(١) رواه الترمذي برقم (١٩٥٤).

استعدادها للعيد :

- وفي شــهر شــعبان ســلّمت الخياط قماشًــا ليحيك لها ثوبًا تلبسه في عيد الفطر مع أحبتها...

ولكن!

لم تكن تعلم ما تخبئه الأيام، وأنَّ هذا الثوب لن تلبســه، وأن عيد الفطر لن تحضره!.

يـا ذَا الـمُـؤمِّـل آمــالاً وإنْ بَـعُـدتْ
مِـنْـه ويـزعـمُ أنْ يـحـظَـى بِـأقْـصَـاهَـا

الوداع الأخير :

- في اليــوم الثالــث مــن أيام رمضــان اتصلــت أمّ صالح على جميع أبنائهــا وبناتها للســلام عليهم ولدعوتهم لطعــام الإفطار، ولما اعتذرت منها ابنتها الكبرى لانشــغال الأبناء بالدراسة ردّت بقولها : مشاغل الدنيا لا تنتهي!

وحدث في المسجد !

- وفي الليلة الرابعة من شهر رمضان من عام ١٤٢٠هـ، ذهبت لتصلّــي صلاة التراويح في مســجد الحيّ وهــي في كامل صحتها وعافيتهــا، ســلّمت على نســاء الجيران، ثم شــرعت لأداء صلاة تحيــة المســجد، وفي الركوع أو الرفع منه اهتزت وســقطت على الأرض، أصيبت بالســكتة القلبية وفارقــت الحياة! - رحمها الله

رحمة واسعة -.

يا لها من حسن خاتمة!

تُوفيَّت وهي تصلّي في بيت من بيوت الله!

قال ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ»، قالوا: كيف يستعمله يا رسول الله؟ قال: «يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ الموت ثُمَّ يَقْبِضُهُ عَلَيْهِ»[1].

ثناء الناس عليها:

- لعلها نالت حسن الخاتمة - والعلم عند الله - بحسن خلقها وصبرها على خدمة الأقارب والأباعد، وهذا ما أفصح به عمّي - زوجها - عندما عزّيناه في زوجته التي يندر أن تجد مثلها، فقال بالحرف الواحد: «أرأيتم عاقبة الصبر» يشير بهذا إلى حسن خاتمتها.

- وما زال ذكرها الطيب وسيرتها العطرة تتردد على ألسِنة أقاربها وخاصة في الأعياد والمناسبات التي كانت تستقبل فيها الضيوف برحابة صدر وبشاشة وجه وسماحة نفس وصفاء سريرة، قال علي بن الحسين: قد استرقك بالود من سبقك بالبِشْر[2].

---

(١) رواه الترمذي برقم (٢١٤٢)، وأحمد برقم (١٢٢١)، قال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) شعب الإيمان برقم (٨٠٥٨).

ومـن فضل الله عليها أنّ الدعوات تلـو الدعوات تصل إليها، والنبي ﷺ يقول: «**أنتُم شُهَدَاءُ الله في الأرض**»[1].

وإنَّــمـا الـمـرْءُ حَـديـثٌ بَـعْـدهِ
فـكُـنْ حـديـثًـا حـسـنًا لِـمَـنْ وَعَـى

- اللهـم اهدنا لأحسـن الأخلاق، فقد كان مـن دعاء النبي - ﷺ -: «**اللَّهُمَّ اهْدِنِي لأَحْسَـنِ الأَخْلاقِ، فَإِنَّهُ لا يَهْدِي لأَحْسَنِهَا إلا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إلا أَنْتَ**»[2].

اللهـم ارحم أمّ صالح واجمعنا بها ووالدينا وذرياتنا في جنّات النعيم.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

٩ - سمَر ...

«الهمّة العالية»

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾ [سورة فاطر : آية : ٢٩]



٩ - سمَرَ ...(*)

همّة وطموح :

- (سَـمَر) فتاة في العشرينات من عمرها، همّة عالية، ونشاط دؤوب في دروب الخير.

دخلـت دورة مُكثّفـة لمدة شـهر في الإجـازة الصيفية لحفظ (عشرة) أجزاء من القرآن. .

تبدأ الدراسة : الساعة السابعة صباحًا وتنتهي الساعة السابعة مساءً.

هذه الفتاة أَحْبَبْتُها في الله، أَحْبَبْتُ أن أسمع الكثير عن حياتها..

ولقائل أن يقول : وما الغرابة في هذا؟

أليس هنـاك -ولله الحمد- آلاف الفتيات يحفظن كتاب الله في دورات مكثفة؟

ما الذي أثار عجبك في سمر؟!

ما الذي تميّزت به؟

- هذه الفتاة كابدت الصعاب بهمّة وطموح.

تحمـل في صدرها همّـة عالية، وتحمل في أحشـائها جنينًا في الشهر التاسع.

(*) نشرتها في مواقع التواصل الاجتماعي بتاريخ (١٠/ ١٤٣٦هـ).

قدمتْ في الإجازة الصيفية من القرية التي تسكن فيها مع زوجها لزيارة أهلها في إحدى المدن، ولمّا علمتْ بهذه الدورة رأت -رغم ظروفها- أنها فرصة عظيمة لا تُفّوت! فالتحقتْ بها.

ولسان حالها يقول:

ولـي هِـمَـمٌ بيـني وبـين بُلُـوغِـهَـا
بُـحُـورٌ مِـنَ الآمـالِ لـيس لـها جِسْرُ

• قال ابن القيم: وقد أجمع عقلاء كل أمة على أنّ النّعيم لا يدرك بالنّعيم، وأن من رافق الراحة فارق الراحة.. والقصد أنّ ملاحظة حسن العاقبة تُعين على الصبر[1].

فضل القرآن الكريم:

• قال ﷺ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»[2].

• وقال ابن القيم: إنّ محبّة الله تنور الوجه، وتشرح الصدر، وتُحيي القلب، وكذلك محبّة كلام الله فإنّه من علامة محبّة الله، وإذا أردت أن تعلم ما عندك من محبة الله؛ فانظر إلى محبة القرآن في قلبك[3].

(١) مدارك السالكين (٢/ ١٢٤).
(٢) رواه البخاري برقم (٥٠٢٧).
(٣) الجواب الكافي، ص ٢٣٥.

وزرتُ مقرَ الدورة :

- قدمتْ لي المديرة نبذة عن الدورة وعن عدد الطالبات وأن من ضمن الطالبات؛ سمر تلك الطالبة الحامل في شهرها الأخير.

حدّثتني عن رغبتها في حفظ القرآن، وعن طموحها ، وعن تخوّف الإدارة أن تأتيها الولادة أثناء الدراسة!!

رافقتني المديرة إلى قاعة الفصل لعقد لقاء طيب مع الطالبات، وكلّي شوق إلى رؤيتها.

دخلتُ المكان. .

تحدَّثتُ مع سمر وزميلاتها عن فضل القرآن الكريم ووجوب العمل به و...

بعد أيام. .

هاتفتني المديرة وبشّرتني بأن سمر قد ولدت.

أتاها طلق الولادة، وهي في مقرّ الدورة، فاتصلت على زوجها الذي ذهب بها إلى مستشفى الولادة مباشرة . .

ومن ثمّ أنجبت مولوداً ولله الحمد.

لا تقوم التقوى إلا على ساق الصبر :

- لم تنه سمر دراستها لانشغالها بالمولود الجديد. .

تغيبّت أربعة أيام فقط ثم عادت، وقد حفظت ما فاتها!!

لم تأت وحيدة هذه المرة بل جاءت تحمل مولودها بين يديها..

دخلـتْ مقر الدورة ، وأودعتْ مولودها عند (المسـتخدمة) بعد أن أشبعته رضاعة فنام. .

ثم دخلت الفصل تحفظ (وتُسمّع) للمعلمة، وبين حين وآخر تذهب تتفقد صغيرها لتطمئن عليه.

لفـتَ نظـر من حولهـا أن طفلها الرضيع لا يبكـي كعادة أكثر المواليد. .

لا أدري!

هـل صدقهـا مـع الله ورغبتها في حفـظ القرآن له أثـر كبير في نزول السـكينة على هذا المولود؟! فقد قال ﷺ: «**إنْ تَصْدُقْ الله يَصْدُقْك**»[1]... الله أعلم.

وبعد أيام...

- طلبت مني المديرة لقـاء آخر مـع الطالبات،فوافقتُ ولم أتـردد! لا أدري؛ هل لأن منزلي لا يبعـد كثيراً عن مقر الدورة أم النفس توّاقة لرؤية (سمر)بعد الولادة والاجتماع مع تلك الوجوه المسفرة(طالبات الدورة)؟!

ذهبت من الغد، دخلتُ القاعة.

هاهـي سـمر، تلبس القفـاز والمصحـف بين يديهـا، وإنهاك الولادة يظهر في وجهها المُجهد.

---

(١) سبق تخريجه.

وجاء الحفل الختامي. .

أُعلنت أسماء المتسابقات. .

ها هي سمر تستلم شهادة حفظ عشرة أجزاء من القرآن، وتهاليل الفرح والبشر ترتسم على وجهها، ولذة النجاح والسرور تكللها، وروعة الهدف تُسابق خطواتها، وما أسماه من هدف!

ذهب التعب وجاء الحصاد. .

قال عبدالله بن وهب: لكل ملذوذ في الدنيا لذّة واحدة ثم تزول إلاّ العبادة لها ثلاث لذّات: إذا كنت فيها، وإذا تذّكرت أنك أدّيتها، وإذا أُعطيت ثوابها.

دروس من سمر:

- لقد تعلّمت منك - يا سمر - درساً عملياً في الصبر والطموح وعلّو الهمّة، وأنّ مَنْ صدق مع الله صدق الله معه.

حقاً! لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا.

- لقد أعطيتِ - يا سمر - درساً لِمِنْ آثر الراحة والدِعَة أن ينفض غبار الكسل ويلحق بركب الحفّاظ، ويصعد على سُلّم الصعاب.. فثمّ الفلاح والسعادة.

حفظكِ المولى، وجعل ما حفظتِهِ حجة لك لا عليك. .



١٠ - أمل عبدالعزيز ...

دروس وعبر

كان من دعاء النبي ﷺ: (**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ**)[١] .

(١) رواه مسلم برقم (٢٣٣٩).



١٠ - أمل عبدالعزيز(*)

قبل سبع سنوات،كنتُ في لقاء مع جمع من النساء، فلما هممتُ بالانصراف أوقفتني طفلة صغيرة في العاشرة من عمرها، ممسكة بيد والدتها،تسألني عن سنّة الضحى!

عجبتُ من حرصها على نوافل الطاعات رغم صغر سنّها.

سألتها : ما اسمكِ؟، قالت: اسمي أمل.

حُفِر هذا الاسم في ذاكرتي،ولم يَدُرْ في خُلْدي أنّي سألتقي بها بعد سنوات، ولكن على حال آخر!

وكان اللقاء ...

ومرّت الأيام والسنوات. . .

- هاتفتني يوماً زميلة لي تخبرني عن شابّة صالحة خيّرة،تبلغ من العمر سبعة عشر عامًا، ترقد قرابة سنتين في المستشفى،أصيبت بورم في المخ، أعاقها عن الحركة والنطق، وأصرّت أن نذهب سويًا لزيارتها لما في ذلك من فضل، فقد قال ﷺ : «مَنْ عَادَ مَرِيضًا، أَوْ زَارَ أَخًا لَهُ فِي اللهِ، نَادَاهُ مُنَادٍ: أَنْ طِبْتَ وَطَابَ مَمْشَاكَ، وَتَبَوَّأْتَ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْزِلاً»(١).

(*) نشرت هذه القصة في صحيفة (تواصل) الإلكترونية بتاريخ : ٢٥/ ٤/ ١٤٣٦هـ.

(١) رواه الترمذي برقم (٢٠٠٨).

ذهبنا إلى المستشفى سويـاً، دخلنا قسم العناية المركزة ثم غرفة المريضة، فإذا المريضة هي أمل!

نعم أمل!

لم أعرفها إلا عندما رأيت والدتها.

الأجهزة الطبيّة تحيط بها، وجهاز التنفس في حنجرتها، لا تتكلّم، لا تتحرّك، فقط ترمقنا بعينيها.

ما أضعفك أيها الإنسان!

- عاد بي شريط الذكريات يوم أن سألتني قبل سبع سنوات عن سنة الضحى، مليئة بالحيوية والنشاط.

والآن!

«**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ**»[1].

هذا حال الدنيا!

فلا حزنٌ يدومُ ولا سرورُ
ولا عُسْرٌ عليك ولا رخاءُ

وصدق ﷺ: «**اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغُلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ**»[2].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه الحاكم برقم (٧٩١٦).

- سألتها: أمل، هل عرفتيني؟

فأشارت بعينيها إلى أسفل، يعني (نعم).

رقّ قلبي لحالها، ذرفت عيني رحمة بها ثم تذكّرت أنّ الله أرحم بها مني.

حدثتها عن حكمة الابتلاء؛ وأنّ المصائب كفارة للذنوب ورفعة للدرجات وزيادة في الحسنات وأوردتُ لها بعض الأحاديث، منها؛ قوله ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا»[1]، وذكرتُ لها شرح الشيخ محمد بن عثيمين على هذا الحديث وهو: أنّ الإنسان لا يخلو من خطأ ومعصية وتقصير في الواجب، فإذا أراد الله بعبده خيرًا عجّل له العقوبة في الدنيا، لأنّ العقوبات تُكفر السيئات، فإذا تعجّلت العقوبة وكفّر الله بها عن العبد يُلاقي الله وليس عليه ذنب قد طهّرته المصائب والبلايا، حتى أنّه ليشدد على الإنسان موته لبقاء سيئة أو سيئتين عليه حتى يخرج من الدنيا نقيًا من الذنوب، وهذه نعمة لأنّ عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة[2].

- وذكّرتها بلقائي بها قبل سنوات عند سؤالها عن صلاة الضحى، وبشّرتها بحديث الرسول ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللهُ فِي

(١) رواه الترمذي وحسّنه برقم (٢٣٩٦).
(٢) شرح رياض الصالحين (١/ ٢٥٨).

ظِلِّـهِ يَـوْمَ لَا ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ. . وَشَـابٌّ نَشَأَ فِي عِبَـادَةِ اللهِ»[1] وقلت: أرجو من الله أن تكوني من هذا الصنف.

تحدثت وتحدثت، وكلها أُذنٌ صاغية.

- أما والدتها - أسأل الله أن يأجرها - فما هوّن عليها هذا الابتلاء إلا بشارات نبينا - ﷺ - لأهل البلاء الصابرين كقوله: «مَا يَزَال الْبَلاءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمؤمِنَةِ في نَفْسِهِ وَولَدِهِ ومَالِهِ حَتّى يَلْقَى الله وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»[2].

دعوتُ لأمل وودّعتها وانصرفت.

وجاء الفرج ..

- بعد مرور عدّة أشهر، هاتفتني والدتها تبّشرني بأن أمل أنطقها الله الذي أنطق كل شيء، وأنها - ولله الحمد - أصبحت قادرة على تحريك يديها وقدميها.

ذهبتُ لزيارتها في المستشفى، دخلت الغرفة، وألقيت السلام.

فردّت أمل: وعليكم السلام ورحمة الله.

- كيف حالك؟ فأجابت : الحمد لله بخير.

سبحان من يحيي العظام وهي رميم!

---

(١) رواه البخاري برقم (١٤٢٣).

(٢) رواه الترمذي برقم (٢٣٩٩).

كنت استمع لكل كلمة تقولها أمل، وقد أبدت فرحتها وسعادتها بأن تفضّل الله عليها بنعمة الكلام؛ فبه تذكر الله، وتفصح عما في نفسها، ثمّ صرّحت برغبتها في تغطية وجهها عن الطبيب،فقاطعتها والدتها مبينةٌ لها صعوبة الغطاء لوجود جهاز التنفس في حنجرتها.

سبحان الله!

قلوب الأتقياء معلقة بالطاعات.

سبحان القريب المجيب!

•• كأني بك - أيها القارئ - تتساءَل : كيف نطقت أمل وتحركت؟.

لا أخفيك سراً أني سألت والدتها هذا السؤال.

فأجابت: في العشر الأخيرة من رمضان، غلب على ظني في إحدى لياليه أنّ هذه الليلة هي ليلة القدر، فاتصلتُ بابنتي المرافقة معها تلك الليلة في المستشفى وطلبت منها أن تتصدّق على عاملة النظافة المحتاجة.

أما أنا- والحديث لوالدتها- فاجتهدت بالدعاء لابنتي أمل أن يفرّج ربي كربها، وكانت المفاجأة!..

بعد أن تصدّقت ابنتي عادت إلى غرفة أمل فإذا هي تنطق بكلمات بل وتحرّك يديها وقدميها!

ذُهلتْ ابنتي المرافقة! واحتارتْ هل تبشرني أم تستدعي الأطباء الذين ألجمهم الموقف!

ما أعظم أثر الدعاء! تفريج للكروب، وزوال للهموم.

وما أبلغ أثر الصدقة! قربة إلى الله ودفع للبلاء.

ذكر ابن القيم: (أن من أسباب إجابة الدعاء:أن يقدّم الداعي بين يديه صدقة)[1] ، فلعلّ الصدقة والانكسار والتذلل بين يديّ الله في ليلة مباركة كان سبباً في تفريج الكربة،﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، وعِلمُ ذلك كلّه إلى الله الذي جعل لكل شيء قدراً.

وخرجت أمل من المستشفى :

- خرجت أمل من المستشفى على كرسيّ متحرك،صابرة

(١) وتمام كلامه رَحِمَهُ اللهُ عن الدعاء المستجاب : (وإذا اجتمعَ مع الدُّعاء حُضُورُ القلبِ وجمعيته بكليته على المطلوب، وصادف وقتًا من أوقات الإجابة، وصادف خشوعًا في القلب، وانكسارًا بين يدي الربِّ، وذُلاً له، وتضرُّعًا ورقَّة، واستقبل الدَّاعي القبلة، وكان على طهارة، ورفع يديه إلى الله، وبدأ بحمدِ الله والثَّناء عليه، ثُمَّ ثنَّى بالصلاة على محمد ﷺ، ثم قدم بين يدي حاجته التَّوبة والاستغفار، ثُمَّ دَخَل على الله وألَحَّ عليه في المسألة، وتملقه ودعاه رغبةً ورهبةً، وتوسَّل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده، وقدّم بين يدي دعائه صدقة، فإنَّ هذا الدُّعاء لا يكاد يردُّ أبدًا، ولاسيَّما إنْ صادف الأدعية التي أخبر النبي ﷺ أنَّها مظنة الإجابة، أو أنَّها متضمنة للاسم الأعظم (الجواب الكافي ص١٢)

على ما أصابها، ولسانها لا يفتر عن ذكر الله وقراءة القرآن والدعاء، ولا تسمع منها إلا عبارات الرضا والتسليم لله، ولسان حالها:-

رَضيتُ بما قَسَمَ اللهُ لي
وفوَّضْتُ أمْرِي إلى خالقي
فَقدْ أحْسَنَ الله فِيمَا مَضَى
ويُحسِن إنْ شَاءَ فيما بقي

- خرجت أمل من المستشفى وكأنها تقول لمن علِم بحالها: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة : ١٠٦]، وأنّه يقول للشيء كن فيكون، وأنَّ الذي أنزل البلاء قادر على رفعه!

- خرجت أمل من المستشفى وكأنها تقول لمن حولها: إنّ المعاق الحقيقي هو من أعاقه الهوى عن اتباع الهدى.

أسأل الله لأمل الشفاء التام، وما ذاك على الله بعزيز.



١١ - أمّ عبدالله اليونانية

﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴾ [يس: ٢٥].

«ولكنَّ الله يعلم»



١١ - أمّ عبدالله «اليونانية»[1](*)

•• التقيتُ قبل سنوات باليونانية «أمّ عبدالله» التي تنحدر من أُسرة نصرانية متعصّبة لديانتها الباطلة، زوجة لطبيب عربي مسلم يعمل في أحد مستشفيات المملكة، مَنّ الله عليها بالإسلام، طرحتُ عليها عدة أسئلة بحضور صديقتها (خديجة) البريطانية.

وإليك - أخي القارئ - هذا اللقاء الشيّق معها :-

س- كيف أسلمتِ؟

- كُنتُ نصرانية متعصّبة لدين النصرانية، تزوّجتْ من رجل مسلم، دعاني إلى دين الإسلام فأبيت، وكان يدعو لي كثيرًا في ظهر الغيب أن يشرح الله صدري للإسلام، ولما قدمت معه للعمل في المملكة، رأيت شعائر الإسلام تقام هنا، بيّن لي زوجي أنّي أشدّ إثمـًا عند الله من أهلي لأني أعيش في بلد الحرمين؛ أسمع الآذان وأرى المصلين، فلا حجّة لي عند الله في بقائي على النصرانية مع وضوح الطريق، وقد أصابني حقيقةً خوفٌ وقلقٌ من مقولته هذه..

(١) آثرت أمّ عبدالله أن لا أذكر اسمها، فلبيتُ طلبها، نشرت في صحيفة تواصل الإلكترونية في ٢٩/ ٢/ ١٤٣٦هـ.

وعلـى الرغم من تمسّـكي آنذاك بديني الباطـل إلاّ أنّي كنتُ حريصـة على إيقـاظ زوجي عنـد نومه للصـلاة، وقـد أثّر كوني ولدتُ في السـودان وعشتُ فيها سنوات الطفولة أنّي لا ألبس إلاّ الملابس المحتشـمة، وأسـرتي عمومًا تأثرت بلباس المسلمات المحتشم هناك.

•• لكن مرّ بي ثلاثة مواقف أثّرت فيّ فكانت سببـًا في إسلامي بعد فضل الله سبحانه :

• الموقـف الأول: أراد زوجـي السـفر إلـى مكـة في العشـر الأخيـرة من رمضـان فطلب مني أن أتهيأ للسـفر عـن طريق البر وكان ينوي أن يوصلنا إلى جدة ثم يذهب إلى مكة وحده. .

وفي الطريق. . وصلنا إلى مفترق : طريق مكة وطريق آخر يصل إلى جدة،وقد كتب على لوحة إرشادية (طريق غير المسلمين).

أراد زوجي أن يسـلك هذا الطريق - لأنه يحرم عليّ الدخول إلـى مكة وأنا نصرانية- ، فقلت له: لندخل سـويـًا لمكة، لا أحد يعلم بذلك، لا رجل الأمن ولا غيره من الناس.

فأجاب : «ولكنّ الله يعلم!»

هزّتني هذه العبارة، وكان لها وقع كبير على قلبي، «ولكن الله يعلـم!» «ولكن الله يعلم»!. أكبرتُ في زوجي اسـتحضاره لرقابة الله ، وإن لم يعلم البشر بصنيعه.

• الموقـف الثاني: عشـت حياة عصيبة من شـهر رمضان إلى شـهر ذي الحجـة أخاطب نفسـي: أأتـرك دين آبائـي وأجدادي وأدخـل في ديـن الإسـلام؟... أيهمـا الديـن الصحيـح الديـن الإسلامي أم النصراني؟!.

ألححـتُ في الدعـاء: «يـارب، يـارب! إن كان دين الإسـلام هـو الدين الحـق فاجعلني من أهله» وكنـت أرى رؤى عجيبة في المنام؛ تارة أني أصلي في الحرم، وأخرى أني أسجد لربي...

• الموقف الثالث: لما سـافر زوجي للحجّ، فتحت التلفاز في يوم عرفة ورأيت منظراً مهيبـًا!.

شـاهدت الحجّاج قد اجتمعوا في مـكان واحد من كل مكان وقد ضجّت أصواتهم يسـألون ربهم الحاجات بصنوف اللغات، وشاهدت حاجـًا كبيراً في السن يدعو ربّه يتضرع ويبكي، فإذا بي أبكي معه!.

لا أدري ما أصابني!.

اللحظة الحاسمة:

- قـررّت الدخول في الإسـلام، وكنت انتظـر رجوع زوجي مـن الحجّ لأبلّغه قـراري الذي طالما تمناه طوال السـنوات التي عشتها معه.

عاد زوجي من الحجّ ،وكان متعباً من السفر فأخلد إلى النوم والراحة. . لكني لم استطع الانتظار..

قمت بإيقاظه وصارحته بأني أريد أن أدخل في دين الإسلام، أتظنون أنّ هذه الكلمات خرجت بسهولة مِن فيّ؟!

لا والله! تلعثمت، وانعقد لساني، وبصعوبة نطقت بها بثلاث لغات: العربية والإنجليزية واليونانية!!

تعجّب زوجي من خلط كلامي بعدة لغات وتلعثمي وارتباكي فقال: «ذهبتُ وأنتِ عاقلة ورجعتُ وأنتِ مجنونة»!.

تمالكت نفسي وقلت: «أريدُ أن أدخل في دين الإسلام».

نفض فراشه، تهلّل واستبشر ثمّ لقّنني الشهادة.

يالها من لحظات عصيبة!

رعشة في جسدي، خفقان في قلبي، برودة في يدي، العرق يتصبب ،نطقت بالشهادتين ثم اغتسلت.

صليت أول صلاة في حياتي.

الله أكبر!

﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠].

ولله الفضل والمنّة واظبت على أداء الصلوات الخمس وصلاة الرواتب والضحى وقيام الليل.

تركت سماع الأغاني ومشاهدة المسلسلات غير الهادفة، وصنت لساني عن الغيبة والنميمة.

ومِنْ فضل الله عليَّ أني لمّا علمت بتحريم مصافحة الأجنبي لم أعُدْ أُصافح الرجال الأجانب بما فيهم زوج أختي، بل لم أعُدْ أتكلّم مع الرجال إلاّ لحاجة.

س - ما هو شعورك بعد الإسلام؟

شعوري بعد الإسلام لا يوصف، أحسست بفرح وسعادة لا مثيل لها، كأني وُلِدتُ من جديد!

لقد أحببتُ هذا الدين العظيم، وكم أنا نادمة على حياتي الماضية التي عشتها في ظلمات الكفر، ولم أقرأ القرآن الكريم ذلك الكتاب الذي ينير طريقنا، ويُبَصِّرنا الحق من الباطل، يعلمنا كيف نعيش الحياة الطيبة؟ كيف نتعامل مع الله؟ كيف نتعامل مع الناس؟ لقد تغيّرت معاملتي لزوجي، أصبحتُ أُقابل ما يمرّ بي من مواقف معه بالصبر والتسامح مما يمليه عليّ ديني الإسلام العظيم.

س - أين يدرس أبناؤك؟

كنت قد ألحقت أبنائي بالمدارس الأجنبية، وبعد أن منَّ الله عليَّ بالإسلام نقلتهم إلى المدارس الحكومية ليتعلّموا اللغة

العربيــة، وقبل كل شــيء ليتعلّموا العلوم الدينيــة، علمًا أنهم لمّا دخلوا المدارس الحكومية أخّروهـم سنتين عن صفوفهم، ولكن ما عند الله خيرٌ وأبقى(*).

والحمد لله أصبحت ابنتي الكبرى تجيد اللغة العربية وأحرص علـى أن ترافقني للندوات الدينيـة لتترجم ما يصعب عليَّ فهمه، وأحيانًـا تقرأ عليَّ بعض الكتب الدينيـة التي أتمنّى - من أعماق قلبي- أن أقرأها بنفســي، وإني لأعجبُ ممن يعرف اللغة العربية قـد علا الغبـار خزينة كتبه لا يقرأ فيها فحرم نفســه مـن التفقّه في الدين!

س- وماذا عن حفظك للقرآن الكريم؟

التحقـتُ بـدار تحفيظ للقـرآن الكريـم - ولله الحمد - كنتُ الطالبة الوحيدة التي لا تسـتطيع قراءة القرآن ولا تجويده، وكان قلبي يحترق شـوقًا وحبًا للقرآن، ولكن صعوبة اللغة حالت بيني وبينه، ألححتُ على الله بالدعاء، تضرّعت، سكبت دموع الإقبال علـى الله والطمـع في رحمتـه في صلاة التهجّد أن يُيسّـر ليّ حفظ كتابـه، والحمـد لله اسـتجاب الله دعائي؛ حفظت جـزء (عمَّ) في

(*) انظر تأثير الأم على أبنائها، صدق الشاعر في قوله :

الأم مـدرسـة إذا أعددتها   أعددت شعبًا طيب الأعراق

خلال ثلاث سنوات، كان في ذهني أسئلة كثيرة وجدت إجابتها في تفسير جزء (عمَّ).

والآن أحفظ (خمسة أجزاء) أخرى من القرآن الكريم بفضل الله تعالى.[1]

س - هل أدّيتِ الركن الخامس «الحجّ»؟

كنتُ أتمنّى أن أقف مع المسلمين في عرفة ملبية (لبيك اللهم لبيك)، والحمد لله حقّق الله سبحانه أمنيتي، وقفتُ مع الحجيج في ذلك اليوم العظيم الذي يباهي به الله ملائكته، دعوت ودعوت.. ومما دعوت به أن يرزقني الله سبحانه ولدًا أُسميه (محمدًا) على اسم نبينا محمد ﷺ وأن ينفع الله به الإسلام والمسلمين.

واستجاب الله دعائي، ورُزِقْتُ فيما بعد بولدي (محمد) ولله الحمد.

•• وقالت عن ماء زمزم:

علمت بفضيلة ماء زمزم الذي قال فيه نبينا محمد - ﷺ - : «ماء زمزم لما شُربَ له»[2] علّقت قلبي بالله فأصبحت أستشفي به أنا وأولادي.

---

(١) ولا عجب فمصعب بن عمير رضي الله عنه أرسله رسول الله ﷺ سفيرًا للإسلام، ولا يحفظ إلاّ من سورة (الناس) إلى سورة (الأعلى)، فقليل القرآن كثير.

(٢) شعب الإيمان برقم (٤١٢٧).

س- حدّثينا عن حجابك؟

الحجاب جمـال ووقار، وقبـل ذلك أمرٌ مـن رب العالمين، أكرم الله به المرأة لتعيش مصونة عن أعين الرجال.

لبِسـتُ الحجـاب مُعتزّة بهذا الأمر الإلهـي، وخمّرتُ وجهي سواء داخل المملكة أو خارجها.

•• سـافرتُ إلـى خـارج المملكـة وآلمني في الطائـرة منظر بعض الفتيات وهنَّ يخلعن «العباءة» ويضعنها في الحقيبة، بكيتُ لحالهـنَّ وليس لـي إلاّ ما أوجبـه الله عليَّ من الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر، والله المستعان!

•• في سـفري إلى بلـدي اليونـان: لم أخلع «عبـاءتي وغطاء وجهي» كنت أسـمع الضحكات والسخرية من بعض من يراني، ولكـن عزائي هـذه الآيـة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ [المطففين: ٢٩-٣٠].

• مـن المواقف التي مرت بي: أني سـافرت إلى أمريكا برفقة زوجـي في مهمّـة تتعلّق بعملـه... وهناك أراد أن يـزور بعضًا من أصدقائه الذين اجتمعوا في بيت أحدهم، ولم أنزل معه انتظرته في السـيارة، فالبيت مليء بالرجال، لاحظت أن بالقرب من السيارة امـرأة أمريكية تلبـس ملابس غير سـاترة، نظرت إلـيَّ طويلاً ثم دخلـتْ منزلهـا... وفي الصبـاح اتصل صديـق زوجي (صاحب

البيت) يخبره بأن جارته الأمريكية قد طرقت عليه الباب بعد مغادرتنا تسأله عن حجابي، هالها دهشةً وإعجابًا، فأخبرها أني مسلمة متحجّبة لأن الإسلام يأمرها بذلك، وأهدى لها كتبًا وأشرطة عن الإسلام.

وفي اليونان كذلك صرّحت لي امرأة يونانية: إنني أخجل أن أتحدث معك! لأني أرتدي ملابس غير ساترة وأنت بهذا الحجاب... إنها ترى صورة الإجلال في هندام الحياء والعفاف والستر.

هكذا المرأة المسلمة ينبغي أن تكون سفيرة لدينها بحجابها، تأخذه بقوّة وترتديه بعزّة.

س - وماذا عن دعوتك لغير المسلمين؟

ولله الحمد أبذل جهدي في دعوة غيري ممن يعشْنَ في ظلمات الكفر عن طريق إهدائهن الكتب والأشرطة الإسلامية سواء في المستشفيات أو المشاغل النسائية، وأبشرك أسلم على يديَّ هنا - بفضل الله - ست نسوة داخل المملكة.

أما في خارج المملكة، فقد كان حجابي مفتاحًا لدعوة الكافرات اللاتي يستوقفنني؛ بعضهنّ يتعجبن من حجابي الكامل من رأسي إلى أخمص قدمي، فأجيبهنّ بأنّي مسلمة، وأعطيهنّ نبذة عن الإسلام.

أخي القارئ:-

ومما جاش في صدري بعد هذا اللقاء :

- أنّ خشية ومراقبة زوجها لربّه قادها إلى تعظيم واعتناق هذا الدين العظيم.

- من صدق مع الله صدقه وأعانه على سلوك الطريق المستقيم.

- الثبات على الدين وذلك في ارتدائها للحجاب داخل المملكة وخارجها، مع أنها نشأت على الديانة النصرانية المحرفة، وترعرعت في بلد الكفر والعهر والسفور إلاّ أنها لمّا أدركت الإسلام ووعت حقيقته سارعت إلى تلبية أمر ربّها في طواعية تامة وإخبات، فلتخش من تبرجت من نساء المسلمين من قوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد : ٣٨].

اللهم ثبتّنا وإيّاها جميعًا على الحق إلى يوم لقائك.

١٢ - أمّ صالح الشايع

العابدة الزاهدة

قال ﷺ: (لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ)[١].

---

(١) رواه الترمذي برقم (٣٣٧٥).



١٢ - أمّ صالح الشايع

(أمّ صالح) امرأة وقورة، ذات سمت وهدي، في السبعين من عمرها.

عابدة، عُرفت بكثرة الأذكار وطول الصلاة.

قلّ أن تجد مثلها في زماننا هذا؛ لسانها رطب بذكر الله، أصابعها التي تبدو عليها تجاعيد الزمن تعقِدُها تسبيحًا وتهليلاً، ليلاً ونهارًا؛ في خلواتها، وفي مجالسها مع النساء، ولكأنها ستفارق الحياة بعد سويعات معدودة، فتودّ أن تملأ صحيفة عملها بالذكر، ولا تفرط في ثانية واحدة من وقتها الثمين.

بداية التعارف :

- رأيت أمّ صالح لأول مرة في بيت ابنها.

كنتُ في المجلس مع زوجة ابنها نتجاذب أطراف الحديث، أمَّا هي فلا تشاركنا إلا قليلاً لانشغالها بالذكر.

قامت زوجة ابنها لإعداد طعام العشاء، فتركتني وحيدة معها؛ حدثتها عن أمرٍ ما، فأنصتت لي قليلاً ثم انشغلت بالذكر، فاستحييتُ أأصمت أم أُكمل حديثي؟!

تناولتْ معنا طعام العشاء لقيمات معدودة ثم ابتعدت قليلاً

عن سفرة الطعام وانشغلت تعقد أصابعها بالتسبيح والتهليل!، -وأحسبها والله حسيبها- ممن قال الله فيهم: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

فضيلة كثرة الذكر:

- قال بعض السلف: علامة حب الله كثرة ذكره، فإنك لن تحبّ شيئًا إلا أكثرت ذكره[١].
- وقال ابن القيم: على حسب نور الإيمان في قلب العبد تخرج أقواله وأعماله ولها نور وبرهان[٢].
- وقال يحيى بن معاذ: القلوب كالقدور في الصدور تغلي بما فيها، ومغارفها ألسنتها، فانتظر الرجل حتى يتكلم؛ فإنّ لسانه يغترف لك مما في قلبه من بين حلو وحامض وعذب وأجاج، يخبرك عن طعم قلبه: اغترافُ لسانه[٣].
- وقال الحسن: أحبّ عباد الله إلى الله أكثرهم ذكرًا وأتقاهم قلبًا[٤].

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ٥١٦).
(٢) الوابل الصيب، ص١٣٠.
(٣) حلية الأولياء (١٠/ ٦٣).
(٤) جامع العلوم والحكم (٢/ ٥١٦).

تعجّب الآخرين من حالها :

زارتني زوجة ابنها وسألتُها عن حال - أم زوجها - أهذا دأبها بالليل والنهار؟!

قالت : نعـم، وأوردت لي هذا الموقف من امرأة رأتْها لأول مرة في مناسبة، وعجِبَتْ كما عجبتُ، فطرحت عليها سؤالاً :

- هل هذا دأبك؟

- فأجابـت بعبارة عامية : (ما فيَّ زود) ، وهذا حال الصالحين يرون في أنفسهم التقصير في حق الله والتواضع في جنابه.

- فقالـت لهـا : منذ أن دخلنا المجلس سـألتِ ثلاثة أسـئلة : (كيف حالكم؟ عساكم بخير؟ عساكم مبسوطين؟) وبقية الوقت انشـغلتِ بالذكر، أسـأل الله لكِ الجنّة، أخبريني منـذ متى وأنتِ على هذا الحال؟!

- فأجابت : أنا من عرفت نفسي وهذا حالي!

الله أكبر!

إنه محض اصطفاء، فمنذ عقلتْ ووعتْ ولسـانها رطب بذكر الله..

حقًـا! الموفّـق مـن وفّقـه الله، والمعان مـن أعانـه الله.. والله المستعان.

• قال ابن رجب: المؤمن كلّه طيب، قلبه ولسانه وجسده؛ بما سكن في قلبه من الإيمان، وظهر على لسانه من الذكر، وعلى جوارحه من الأعمال الصالحة التي هي ثمرة الإيمان وداخلة في اسمه[1].

• قال خالد الربعي في قوله تعالى: ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٢]: «قف عندها ولا تعجل، فلو استقرّ يقينها في قلبك ما جفت شفتاك»[2].

يا حسرتنا على أنفسنا، كم فرّطنا في الذكر، وهو عبادة يسيرة ذات أجورٍ عظيمة.

عِظَم منزلة الصلاة:

• الصلاة آكد العبادات بعد التوحيد، وأول ما يُسأل عنه العبد يوم القيامة، وهي نور للعبد ونجاة، قال ﷺ: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ كَتَبَهُنَّ اللهُ عَلَى الْعِبَادِ، فَمَنْ جَاءَ بِهِنَّ لَمْ يُضَيِّعْ مِنْهُنَّ شَيْئًا اسْتِخْفَافًا بِحَقِّهِنَّ كَانَ لَهُ عِنْدَ اللهِ عَهْدٌ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ»[3].

• قال ابن القيّم: وللصلاة تأثير عجيب في دفع شرور الدنيا، ولاسيّما إذا أُعطيت حقّها من التكميل ظاهرًا وباطنًا،

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٥٩).

(٢) الدر المنثور (٣/ ٢٨٦).

(٣) رواه أبو داود برقم (١٤٢٠).

فما اُسْتُدْفِعَت شـرور الدنيا والآخرة، ولا اُسْتُجلبت مصالحهما بمثل الصلاة، وسـرُّ ذلك أن الصـلاة صلة بين العبد وربّه، وعلى قـدر صلة العبـد بربّه عزّ وجل تفتـح عليه من الخيـرات أبوابها، وتقطع عنه من الشـرور أسـبابها، وتفيض عليه مـواد التوفيق من ربّه والعافية والصحة والغنيمة والغنى والراحة والنعيم والأفراح والمسرّات كلّها محضرة لديه ومسارعة إليه[1].

وفي صلاتها عظات :

- كانـت أمّ صالح مشـهورة بطول الصلاة وكثـرة النوافل من راتبـة وتطـوع، فقد وجدت بها قـرة عين، وصـدق مناجاة، ولذة تبتل، أدركت أنها السـعادة، وأنّ الأنس لا يكون إلا حينما تنحني الجبـاه خشـوعًا لله، تزداد بخضوعهـا إيمانًا ورفعـة، وترتوي به راحة وسكينة.

كانت لا تنتهي من صلاة الظهر إلا الساعة الواحدة والنصف.

أما صلاة العشاء : فهي تصليها بوضوء صلاة المغرب! إذ أنها تصلـي صلاة المغرب ثم تصلي ما شـاء الله لها أن تصلي وتذكر الله، وما هو إلا أن يؤذّن لصلاة العشاء فتؤدي صلاة العشاء[*].

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٣٣١).

(*) ولا يظن ظان أنّ طول الصلاة مختص بكبيرات السن، فلقد طلبت مني إحدى=

قيام الليل :

• قـال ﷺ : «مَـنْ قَـامَ بِعَشْرِ آيَـاتٍ لَمْ يُكْتَـبْ مِـنَ الْغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِـبَ مِنَ الْقَانِتِينَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْمُقَنْطِرِين»[1]، قال الحافظ : من سورة (تبارك الذي بيده الملك) إلى آخر القرآن : ألف آية، والله أعلم.

- كانـت أمّ صالح حريصة على قيام الليل تُناجي ربّها! ترجو رحمته وتخاف عذابه، لا تسـل كم تصلي مـن الركعات، أيقنت أن الدّنيا معبر إلى الدار الآخرة فعكفت على عبادة ربها، ولسـان حالها :

سَبِيـلُـكَ في الـدّنـيـا سبيـلُ مُـسـافـرٍ
ولابــدَّ مــن زادٍ لـكــلِّ مُـسـافِـرِ

وَلابُــدَّ لـلإنـسـانِ مـن حـمـلِ عُـدّة
ولاسـيّـمـا إنْ خـافَ صـولـةَ قـاهِـرِ

=الأمهـات - أثناء تدريسـي لطالبات المرحلـة الثانوية - أن أنصـح ابنتها التي تـدرس في الصف الأول الثانوي أن لا تطيل صلاتها وأكدت على طلبها الغريب الذي أدهشـني، ورأيت مصداق ما ذكرت هـذه الأم عن ابنتها في صلاة الضحى التي تسـتغرق طوال فترة الاستراحة (الفسـحة) وجزءًا من وقت الحصة الرابعة مما أدى إلى تضجر بعض المعلمات من تأخيرها!

(١) رواه أبو داود برقم (١٣٩٨) قال محققوه : إسناده حسن، (المقنطرين) : أي هم الذين أعطوا قنطارًا من الأجر.

حالها مع أقاربها :

• إنَّ احترام الكبير ورعايته ومؤانسته من محاسن هذا الدين العظيم، فقد قال ﷺ: «**إِنَّ مِنْ إِجْلالِ اللهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ**»[(١)].

فمن كان لديه كبير في السن فليراعِ كِبَره وسابقته إلى الإسلام، وليحرص على قضاء حوائجه، وإجلال قدره، والتلطف معه، والرفق به، وهذا دأب المحيطين بأمّ صالح، فقد حظيت منهم بقدر كبير من الاحترام والتقدير.

- وأما هي فقد كانت تتهلّل فرحًا بمن يزورها من أقاربها وتُرحّب به، وأمّا من تأخّر عن زيارتها فإنها تدعو له بأن يحفظه الله، وإذا زارها لا تحوّل الجلسة إلى جلسة عتاب ولوم؛ وبذا كسبت وُدَّ أقاربها.

هذه سيرة أمّ صالح العطرة كم نحن بحاجة إلى التأسي بها...

---

(١) رواه أبو داود برقم (٤٨٤٣).



١٣ - زهرة الصومالية

«من صدق مع الله صدق الله معه»

من دعاء النبي ﷺ : (اللَّهُمَّ اجعلني لكَ شكَّاراً، لَكَ ذَكَّارًا)[١].

(١) رواه الترمذي برقم (٣٥٥١).



١٣ - زهرة الصومالية

زهرة من الصومال :

(زهـرة) فتـاة صوماليـة في العشـرينات من عمرها، يسـربلها السمت، ويزينها الوقار، من عائلة مسلمة ثرية جدًا.

لم تُغْرِها مباهج الحياة الدنيا ومتاعها الزائل، فحبّ الدين عن الدنيا كفاها.

أنهت زهرة شـهادة الثانويـة العامة في الصومـال، فطلب منها أهلها أن تذهب إلى بريطانيا أو أمريكا للدراسة في إحدى جامعاتها حيـث يدرس هناك إخوتها، فامتنعت، فقد كانت لها أمنية سـامية تريد أن تعتلي بها إلى درجات الجنان.

سُمُوُّ الأمنية :

- لقـد كان حلمها الوحيد وأمنيتها أن تدرس العلم الشـرعي الذي ثمرة سـلوكه دخول الجنة كما قال ﷺ : «**مَنْ سَـلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِـسُ فِيهِ عِلْمًا سَـهَّلَ اللهُ لَـهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّـةِ**»[1]، وبالتحديد كانت تريد دراسته في جامعات المملكة العربية السعودية، حيث تتميز مدارسـها وجامعاتها بتدريس منهج أهل السـنة والجماعة،

---

(١) رواه الترمذي برقم (٢٦٤٦).

وعـدم الاختلاط بيـن الجنسـين ، وهذا من فضـل الله على هذه البلاد المباركة.

كانت زهرة تتردّد كثيرًا على السـفارة السـعودية في الصومال تطلب منحة دراسية ولم تيأس وصبرت وصبرت.

تُـريـديـنَ إتـيـانَ الـمـعـالـي رخـيـصـةً
ولابُـــدَّ دونَ الـشَّـهـدِ مـن إبـرِ النَّحل

وبعد ثلاث سنوات من مراجعة السفارة السعودية، ومخاطبة السفارة لوكالة الكليات بالرياض أتت الموافقة.

سَـيـفـتـحُ الله بـابًـا كـنـتَ تـحـسَـبُـهُ
مـن شِـدَّةِ الـيـأسِ لَـمْ يُخلق بمفتاحِ

وتحقَّقَتْ الأُمنية!

- قَدِمَتْ زهرة إلى الرياض، والتحقت بإحدى الكليات - قسم الدراسات الإسلامية- ، وأقامت في السكن الداخلي للطالبات.

كانت حريصة على المذاكرة، وعلى حضور الدروس العلمية في وقت الاستراحة، وعلى الاجتماع بطالبات العلم في الكلية... فقد وجـدت اللّذة والسـعادة الحقيقيـة التي طالمـا حلمت بها، وحقّق الله مناها.

لقد تركـت والديها وإخوتها وجاءت لطلب العلم الشـرعي، ولسان حالها يقول :

لِـي هِـمَّــةٌ في العِـلْـمِ ما مِـنْ مِثْلهَا
وَهــيَ التـي جَنَـتِ النُّحـوُل هـي التِّي
كَـمْ كـانَ لـي مِـنْ مَجْلسٍ لـوْ شُبّهت
أجْـــوَاؤُهُ لَـتـشَـبَّـهــتْ بـالـجـنَّـــةِ

موقف لا يُنسى :

زهرة اسم لا يُنسى من ذاكرة الأيام.

- التقيت بها مرارًا، أحببتها في الله...

في يومٍ ما، في مصلى الكلية...

كنتُ في جلسة طيبة مع زهرة وبعض الزميلات نتجاذب أطراف الحديث، فقامت إحدى الزميلات ووزّعت مُطيّب الفم (علك) على الجميع ، فلما جاء الدور إلى زهرة رفضت أخذه، وقالت : يلهيني عن ذكر الله.

- فاعتذرت الزميلة قائلة : ولكنه يُطيِّب الفم!

- فردت زهرة : والمسواك!

عمّ الصمت الجلسة...

ومرت الأعوام، وما زال صوت زهرة يرنُّ في أذني (يلهيني عن ذكر الله).

• كان مـن دعـاء النبـي ﷺ: «**ربِّ اجعلني لك شـكارًا، لك ذكّارًا، لك رهابًا، لك مطواعًا، لك مخبتًا، إليك أوّاهًا منيبًا**»[1].

إنّ القلوب الحيّة ألسنتها مشغولة بالذكر والتسبيح، ولا تطيق فراقه، «ففي القلب خلّة وفاقة لا يسدّها شيء البتّة إلاّ ذكر الله»[2]، «وما تنعّم المتنعّمون بمثل ذكر الله»[3].

- أنهت زهرة دراسـتها الجامعيـة، ورجعت إلى بلادها داعية إلى الله.

مـا أجمـل الأخـوة في الله، لا تُنسـى وإن بعُـد العهـد، وطال الزمان...

(١) سـبق تخريجه، مخبتًا: من الإخبات: أي خاضعًا خاشـعًا متواضعًا، أوّاهًا: أي متأوّهًا متضرعًا.

(٢) الجواب الكافي ص٧٨.

(٣) حلية الأولياء ٢/ ٣٥٨ (قول مالك بن دينار).

الخاتمة

الحمـد لله الـذي بنعمته تتـمّ الصالحات، والصلاة والسـلام على قدوتنا وإمامنا محمد ﷺ ... وبعد:

إن هـذه السير الطيّبـة التي سـردتها لك، ليـس المقصد منها التسـلية وقضاء الوقـت في قراءتها، إنما لأخذ العـبرة والعظة من أُناس عاشوا في عصرنا، وربما يشغلهم ما يشغلنا، لكنهم احتزموا بعدّة الصبر وابتغوا نيل الأجر، وعلموا أن الدنيا متاع، وأن الآخرة هي دار القرار؛ فجدّوا واجتهدوا.

فـلا تيأس مـن حالـك، فإنه متـى كان لديـك النيـة الصادقة والرغبة الجادة لمجاهدة نفسـك، وكبح جماحها، وسـوقها إلى فيء الطاعـة؛ أعانك الله ووفقك وسـددك، قـال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. فلـم يبـق إلاّ الحـذو كحذوهـم، والسير في ركبهم.

أسأل الله أن تكون هذه السير مطية لي ولك إلى الدار الآخرة، وما ذلك على الله بعزيز.

تمّ الكتاب، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وصلِّ اللهم وسلِّم على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبته الفقيرة إلى الله

شيخة بنت محمد القاسم

٢٥/٨/١٤٣٨هـ

المراجع

المراجع

- إغاثة اللهفان - ابن القيم الجوزية - المكتبة الثقافية - بيروت.
- الجامع لأحكام القرآن - لأبي عبدالله محمد القرطبي - تصميم أحمد البردوني.
- الجواب الكافي - ابن القيم الجوزية - الطبعة الأولى - ١٤٢٤ هـ.
- الأدب المفرد - الإمام محمد البخاري - تخريج محمد ناصر الدين الألباني - دار الصديق - الجبيل - الطبعة الثانية - ١٤٢١هـ.
- الدّر المنثور - جلال الدين السيوطي - تحقيق : د. عبدالله التركي - دار هجر - القاهرة - الطبعة الأولى - ١٤٢٤ هـ.
- السنن الكبرى - أحمد ابن الحسين البيهقي - دار الفكر.
- السنن الكبرى - أحمد النسائي - المشرف على التحقيق : شعيب الأرناؤوط - مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الأولى - ١٤٢١ هـ.
- الفوائد - ابن القيم الجوزية - تحقيق : محمد عثمان الخشت - دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة السادسة - ١٤١٨ هـ.
- المستدرك على الصحيحين - محمد الحاكم النيسابوري - دار المعرفة - بيروت - الطبعة الأولى - ١٤٠٧هـ.
- المصنف في الأحاديث والآثار - الحافظ أبي بكر ابن أبي شيبة - الدار السلفية - الهند - الطبعة الأولى - ١٤٠١هـ.
- الموطأ - مالك بن أنس - تحقيق : بشار معروف - دار الغرب الإسلامي - بيروت - الطبعة الثانية - ١٤١٧ هـ.

- الوابل الصيب - ابن القيم الجوزية - تحقيق : بشير عيون - مكتبة المؤيد - بيروت - الطبعة الثالثة - ١٤٠٩ هـ.

- تفسير ابن كثير - أبو الفداء إسماعيل بن كثير - دار المعرفة - بيروت - ١٤٠٣ هـ.

- جامع العلوم والحكم - عبدالرحمن ابن رجب - تحقيق : شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجي - مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الثانية - ١٤١٢ هـ.

- حلية الأولياء - للحافظ أبي نعيم الأصبهاني - دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الخامسة - ١٤٠٧ هـ.

- زاد المعاد - ابن القيم الجوزية - تحقيق : شعيب وعبدالقادر الأرناؤوط - مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الثالثة عشر - ١٤٠٦ هـ.

- سلسلة الأحاديث الصحيحة - ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي - بيروت - الطبعة الأولى - ١٣٩٩ هـ.

- سنن ابن ماجه - محمد ابن ماجه - تحقيق : محمد فؤاد عبدالباقي.

- سنن أبي داود - الإمام الحافظ أبو داود سليمان الأشعث - تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون - دار الرسالة العلمية - دمشق - طبعة خاصة - ١٤٣٠ هـ.

- سنن الترمذي- لأبي عيسى محمد بن سورة -دار إحياء التراث العربي- بيروت - تحقيق: إبراهيم عوض.

- سنن الدارمي - للإمام الحافظ عبدالله الدارمي - تحقيق : فواز زمزلي وخالد العلمي - دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الأولى - ١٤٠٧ هـ.
- سير أعلام النبلاء - شمس الدين محمد الذهبي - مؤسسة الرسالة- بيروت - الطبعة الأولى - ١٤٠٢هـ.
- شرح رياض الصالحين - محمد بن صالح العثيمين - مدار الوطن للنشر - الرياض - ١٤٢٥هـ.
- شعب الإيمان - أحمد بن الحسين البيهقي - تحقيق أبي هاجر محمد السعيد زغلول - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى - ١٤٢١ هـ.
- صحيح الجامع الصغير - ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي- الطبعة الثانية - ١٣٩٩ هـ.
- صحيح سنن ابن ماجه - ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي- بيروت - الطبعة الأولى - ١٤٠٧ هـ.
- صحيح مسلم - مسلم بن الحجاج - تحقيق : محمد فؤاد عبدالباقي- المكتبة الإسلامية - استانبول.
- صفة الصفوة - لأبي الفرج ابن الجوزي - تحقيق : محمود فاخوري - دار المعرفة - بيروت - الطبعة الثالثة - ١٤٠٥ هـ.
- طبقات الأولياء - ابن الملقن - تحقيق : نور الدين شريبه - مكتبة الخانجي - القاهرة - الطبعة الرابعة - ١٤١٥هـ.

- طريق الهجرتين - ابن القيم الجوزية - دار الكتاب العربي - بيروت.
- فتح الباري - للحافظ أحمد بن حجر - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض.
- كتاب الروح - ابن القيم الجوزية - تحقيق: بسام العموش - دار الفضيلة - الطبعة الأولى - ١٤٣٢ هـ.
- كتاب الورع - للحافظ أبي بكر عبدالله بن أبي الدنيا - تحقيق : محمد الحمود - الدار السلفية - الكويت - الطبعة الأولى - ١٤٠٨هـ.
- مجموع فتاوى أحمد ابن تيمية - جمع وترتيب : عبدالرحمن بن قاسم وابنه محمد - مجمع الملك فهد بالمدينة - ١٤١٦ هـ.
- مختصر قيام الليل - أحمد المقريزي - عالم الكتب - بيروت - الطبعة الثانية - ١٤٠٣هـ.
- مختصر منهاج القاصدين - أحمد ابن قدامة المقدسي - علق عليه: شعيب وعبدالقادر الأرناؤوط - مكتبة البيان - ١٣٩٨ هـ.
- مدارج السالكين - ابن القيم الجوزية - نشر مؤسسة فؤاد بعينو - بيروت.
- مسند الإمام أحمد - أحمد بن حنبل - المشرف على التحقيق : شعيب الأرناؤوط - مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الأولى - ١٤١٨ هـ.
- مكارم الأخلاق - عبدالله ابن أبي الدنيا - تحقيق ياسين السواس - دار صادر - بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٩٩ م.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١	المقدمة.	٧
٢	نورة الزومان (جدّتي لأبي).	١١
٣	سارة القاسم (عمّة والدي).	٤٣
٤	مها الدبل.	٦٣
٥	السجينة بلقيس.	٨١
٦	مها السريع.	٨٩
٧	نورة الحبرين.	١٠١
٨	هيا الجبرين.	١١٣
٩	نورة اللّحيد.	١٢٧
١٠	سمر.	١٣٧
١١	أمل عبدالعزيز.	١٤٥
١٢	أم عبدالله اليونانية.	١٥٥
١٣	أم صالح الشايع.	١٦٧
١٤	زهرة الصومالية.	١٧٧
١٥	الخاتمة.	١٨١
١٦	المراجع.	١٨٥
١٧	الفهرس.	١٩١